المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربى للطباعة والنشر

المكتبة الثقافية
جامعة حرة
العدد ١٩٩

ثلاثة أعراس

أودت بالخزانة إلى الإفلاس

دكتور: محمود أحمد الحفنى



اول يونيه ١٩٦٨ الثمن ٣ قروش

ثلاثة أعراس

أودت بالخزانة إلى الإفلاس

دكتور: محمود أحمد الحفني

دار
الكاتب العربي
للطباعة والنشر
بالقاهرة

المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر
دار الكاتب العربي للطباعة والنشر

مقدمة

انها ثلاثة أعراس ٠٠ وليست فى الحقيقة ثلاثة من حيث الكم والعدد ، انما هى ثلاث صور مختلفة لأفراح تمت فى عصور ثلاثة مرت بها مصر فى غضون الألف عام الأخيرة ٠٠ أفراح أقيمت لزيجات أبناء وبنات الحكام على حساب الشعب ، أنفقت فيها أموال الدولة فى اسراف أو قل فى اتلاف ٠٠

وهى صورة من الحياة الطبقية الصارخة التى كانت تعيش فيها مصر بين شعب وحكام ٠٠ شعب يرى حكامه ينزلون به الجور والعسف وتتألق من حولهم الأنوار والأضواء ، بينما هو فى ظلمة حالكة من الفقر والجهل والمرض ٠٠ يرى أمامه الثراء والترف والنعمة ، وهو فى حياة كلها ضنك وبؤس وحرمان ٠

لذلك لم تكن تلك الأفراح عند الشعب غير أتراح٠ ولئن استهواه صخبها فخرج فى الطرقات يزمر معها ويغنى لها فانما كان ينفس عن نفسه ويروح عن بعض كربه ٠ فكانت الموسيقى والغناء هما النافذتان اللتان أمكن له من خلالهما أن يرى نور الأمل والرجاء ، وأن

يخفف عن طريقهما الحمل الثقيل الواقع على كاهله من المظالم .. والشعب المصرى مرح بطبيعته ، تستهويه النغمة وتجتذبه الأغنية .

لقد فرض هؤلاء الحكام أنفسهم على الشعب ، وتعالوا عليه ، وتساموا عن الاندماج فيه . وظلوا طبقة ممتازة لها تعاليمها وتقاليدها الخاصة بها ، تجمع فى يدها كل النفوذ والسلطان ، ولها وحدها ملكية الارض والاقطاع . تسخر الشعب فى مصالحها ودفع الضرائب لها .

وقد حافظت تلك الطبقة الحاكمة على تعاليمها ، تربط بين أسرها صلات النسب والقرابة والمصاهرة . ولم يكن السلطان يجد غضاضة فى أن يتزوج امرأة أحد الأمراء أو مطلقته . كما كانت زوجة السلطان لا تجد أية غضاضة اذا هى تزوجت من أحد الأمراء بعد طلاقها أو وفاة زوجها . وكذلك لم يكن السلطان ليجد حرجا أو موقفا غير عادى اذا هو أقدم على تعدد الزوجات مع وجود نظام التسرى ووفرة الرقيق .

على أن تلك الأفراح التى نحن بصددها انقلبت اتراحا حتى على أصحابها . فما أن ذهبت الغفوة وجاءت الصحوة حتى وجدوا أنفسهم وقد أقفرت خزائنهم بما هدد تاجهم وذهب بسلطانهم .

وتلك الأفراح هى :

١ - زواج قطر الندى ابنة خمارويه .

٢ - زواج أبناء وبنات السلطان الناصر محمد بن قلاوون .

٣ - زواج أنجال الخديو اسماعيل .

على أنه من الحق علينا أن نقول ان هذا الاسراف والمبالغة فى النفقات لم يكن مقصورا على تلك الأفراح الثلاثة فحسب . فكم من أفراح أقيمت عبر التاريخ ، دفع حب التفاخر والتظاهر بأصحابها الى مثل هذا الاسراف والاتلاف . ولكننا اخترنا أن نقدم هذه الثلاثة ، موضوع هذا الكتاب ، كنماذج لمثل هذا النوع من الافراح المتطرفة التى أقيمت فى بلادنا .

***

واذ أن الهدف الأول لكل ما تخرجه المكتبة الثقافية من المطبوعات انما هو الطريق الى ثقافة الشعب وتقديم العلوم والفنون فى صورة سهلة التناول، فقد اتخذت الحديث عن هذه الأفراح سلما لتقديم صفحات تاريخية مبسطة عن تلك العصور التى مرت بها مصر ، حتى يمكن أن يكون القارىء فى الصورة من الحياة المصرية فى كل من عصور تلك الزيجات ، وهى عصور يفصل بين كل منها والآخر خمسة قرون تقريبا .

واتماما للفائدة رأينا أن نمهد لموضوع هذه الزيجات

بعجـــالة موجزة عن الزواج ، مع ايراد بعض طرائقـــه وطرائفه •

***

هــذا وكان من الطبيعى آلا أغفل أمر الحــديث عن الموسيقى والغناء فى تلك الزيجات • فقدمت صورة خاطفة لهذا الفن فى تلك العصور ، مع الاشارة الى أشهر أعلامه وطرف من أغانيه وذكر أهم الآلات الموسيقية بالقدر الذى يسمح به نطاق هذا الكتاب •

دكتور محمود أحمد الحفنى

الزواج

طرائقه وطرائفه

لم يكن الزواج بالمعنى المتعارف عليه اليوم موجودا عند الشعوب الفطرية الأولى ، بل كان اجتماع الذكور والاناث فى أدنى صور الحياة مجرد اشباع لغريزة حفظ النوع • وشأن الانسان فى ذلك شأن جميع أنواع المخلوقات التى تندفع الى عملية الانماء هذه اندفاعا طبيعيا •

وارتقت الحياة بعض الشىء فى مدارج التطور ، وتكونت العشائر والجماعات ، فانتقل الانسان من بدائية اشباع الغريزة الجنسية خطوة تقدمية وان ظل حقبة كبيرة من الزمان لا يعرف فى ذلك معنى الزواج الفردى ، انما كانت شيوعية الجنس هى السائدة • وكان الأبناء فى تلك العصور السحيقة يعتبرون أبناء الجماعة بأسرها من غير تحديد لأبوة أو ارتباط بنسب • لذلك كانت الأم فى تلك العصور محور الاستقرار فى تلك العشائر والجماعات البدائية ، حتى لقد أطلق المؤرخون على تلك العصور اسم « عصور حقوق الأم » • وكان الابن فيها ينسب الى خاله الذى يعتبر أقرب الرجال اليه •

وتطورت الحيـــاة مرحلة تقدمية أخرى من مراحل النظام الاجتماعى ، وان كان الانسان لا يزال غير عارف للزواج الفردى ، لكنه انتقل الى وحدانية الزوجة وتعدد الأزواج أو وحدانيـة الزوج مع تعـــدد الزوجات ٠٠ ثم ارتقى من ذلك الى نظام الزواج الفردى ، وهو زواج رجل واحد بامرأة واحدة وبناء أسرة مقفلة التكوين من الأبوين وأبنائهمـا ٠ وانتقلت البشرية من « عصور حقوق الأم » الى « عصور حقوق الأب » ٠ ويقع ذلك تقريبا فى بداية التاريخ العـام حيث حضارات الممـالك القديمة ٠ فقـد سارت وفق هذا النظام الاجتماعى التقدمى مدنيات قدماء المصريين والهنود والصين واليونان والرومان ٠

أما طريقـة الحصول على الزوجة فقد اختلفت أيضا باختلاف مراحل تقدم البشرية فى مدارج الحياة ٠ ويمكن القول بصفة عامة أن أشهرها اتبـاع احدى هذه الطرق الثلاث :

١ ـ الزواج بالشراء ٠

٢ ـ الزواج بالأسر أو السبى ٠

٣ ـ الزواج بالرضا والقبول ٠

وكانت الطريقـة الأولى هى الشـائعة فى غالبيـة الشـعوب ، حتى فى تلك التى نالـت حظا من المدنيـة والحضـارة ٠ ومن الطريف أن نذكر أنه فى بعض لغـات الساميين القـدماء كان ما يقدم ثمنـا للزوجة يطلق عليه

اسم «مهر» (بضم الميم) ، وما يزال هذا اللفظ مستعملا فى لغتنا حتى اليوم (بفتح الميم بدلا من ضمها) وان كان مفهوم الثمن قد تغير عن مدلوله فى العرف التجارى ٠

أما الزواج عن طريق الأسر أو السبى ، فهو أن يستولى الرجل على المرأة عنوة بطريق اغارة قبيلة على أخرى أو نتيجة لحرب ٠ وقد ظلت هذه الطريقة متبعة حتى فى أرقى الحضارات القديمة ٠ بل وما تزال صورتها موجودة حتى اليوم عند بعض القبائل حيث يقوم الزوج فى ليلة الزفاف بالاستيلاء على زوجته عنوة واستخلاصها من أهلها ، وان كان هذا التقليد فى جوهره مجرد تمثيلية شكلية ٠

وأما الزواج بالرضا والقبول فانه يعتبر آخر مرحلة من مراحل تقدم المجتمع البشرى ٠ وعماده قيام التعاطف بين المرأة والرجل وقبولهما الزواج ورضا الأسرتين عن المصاهرة ٠

ولقد سبقت المدنية المصرية القديمة سائر المدنيات الأخرى وامتازت بكثير من الصفات الاجتماعية الكريمة ٠ وكان من أخص تلك الصفات اقبال بنيها على الزواج والتبكير فيه ومراعاة التوافق بين الجنسين ومناصرة المرأة للرجل ومعاونتها له على تحمل مشاق الحياة ومشاطرته اياه مضض العيش ، فلم تكن عبئا ينوء به ولا حملا يضاف الى ما يحمل من أثقال ٠ ولما استقرت حال الشعب وامتدت فتوحاته وزادت غنائمه من الأسرى والسبايا ، وأربى

عدد الفتيات فى الوادى على عدد الفتيان سن الفراعنة فى الأسرة السادسة لشعبهم نظام التسرى ، وأصبح من حق الرجل أن يمتلك الحظايا والجوارى يخدمنه هو وزوجته فى بيته • وكان من طبيعة الفتيات المصريات أن ينهضن بالعمل فى بيوت آبائهن ويقمن بنصيب وافر حتى اذا انتقلن الى بيوت أزواجهن لم يتغير من نظام حياتهن العملية شىء • وكانت الفتاة فى بيت أبيها تحب أخاها وتساعده فى عمله وتعاونه فى قضائه وانجازه • وهى فى بيت زوجها تدعو زوجها أخا وتتحبب اليه كما كانت تتحبب الى أخيها ، وتبذل له المعونة ، وتقوم على شئونه فى اخلاص ومشاركة صادقة •

وتدل مخلفات المصريين من النصوص الديموطيقية على أن الأزواج كانوا يتقدمون لأصهارهم بمهور تتناسب مع حالة الزوجين • ولقد جاء فى نصوص بعض عقود الزواج أن الزوج يمهر خطيبته مقابل الزواج منها « كذا من الثيران وكذا من الطير وكذا من الثياب وكذا من المصوغات » • ولكن المعروف عنهم أنهم ما كانوا يغالون فى تلك المهور بل كانوا يتبسطون فيها • وقد وجد عقد الزواج نص فيه على أن المهر «ثوب من الكتان الابيض» • واذن فقد سن المصريون القدماء أبسط قواعد الزواج الخالية من التكلف لشعوب الارض جميعا •

***

وما من شك فى أن الأديان السماوية هى التى

نظمت قوانين الزوجية وأرست دعائم المعاملات بين المرأة والرجل بما يضمن استقرار الأسرة والمساواة فيها بين الزوجين • وصار للمرأة فى شرائع الله جلالها وقدرها ولها فى المجتمع مكانتها وخطرها • وما يزال الرجل يحاول التقرب اليها واجتذابها بشتى وسائله من المال والقوة والعاطفة • ولعل الأخيرة هى أشد الوسائل وأقواها ، وعلى أساسها قامت قوانين التشريع الحديث حتى لا تغلب المرأة على أمرها بالقوة أيا كان مصدرها • انما ينبغى أن تكون لها الكلمة الأخيرة فى الزواج بالايجاب والقبول •

ولقد أولت شريعة الاسلام المرأة حقوقا متساوية مع الرجل فى كثير من شأنها بقوله تعالى « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف » • كما جعل الاسلام الصداق فريضة للمرأة ولا حد لأكثره • ولها أن تتنازل عن قليله أو كثيره دون تحديد •

ولكن الناس هم الناس فى كل عصر وأوان، يتلمسون المروق من القوانين والشرائع بشتى الوسائل ومختلف الطرق • فمنهم من يرغم فتاته على الاقتران بزوج لا تطيقه ولا تألفه ، ويفرضه عليها بحكم أبوته مستخدما فى ذلك ما يشاء من أسلحة القوة والسيطرة • ومنهم من يتخذ المال وسيلة وغاية فى أمور فتياته فيفرض لقبوله تزويجهن من المهور والنفقات ما يجل عن الحصر والتقدير • وقد غالى الكثيرون فى ذلك واستبد بهم التقليد ونزعوا نحو التعالى

والتكبر والتفاخر ، فصعدت أرقام مهور بناتهم مع صعود البشر نحو الترف والمدنية الكاذبة .

ولقد أدرك عمر بن الخطاب ما ينساق اليه الناس نحو المغالاة فى المهور وتجاوز الحد فيها عما كان ساريا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يوما وهو يخطب فى الناس :

« ألا لا تغالوا فى صدقات النساء فانها لو كانت مكرمة فى الدنيا وتقوى عند الله لكان أولاكم بها نبى الله صلى الله عليه وسلم . ما عملت رسول الله نكح شيئا من نسائه ولا أنكح شيئا من بناته على أكثر من نصف أوقية » (١) .

ولقد اختلف العلماء فى أقل الصداق فذهب جماعة الى أنه لا تقدير لأقله ، مستندين فى ذلك على قول النبى صلى الله عليه وسلم : « التمس ولو خاتما من حديد » .. كما أن تعليم المرأة يمكن أن يكون صداقا لها بدل المال ، فلقد كان مهر امرأة على عهد رسول الله تعليمها شيئا من كتاب الله . كما كان التعليم فى غزوة بدر فداء للاسرى بدلا من دفعهم المال .

والعبرة فى كل هذا تقع على مدى رضا المرأة من الفها وعشيرها . فقد ترضى بقرين يسير المال بينما لا ترضى بغيره مهما بذل ولو كان ملء الأرض ذهبا . فلم تعد المرأة

---

(١) المقصود هنا أوقية الفضة . والاوقية سبعة مثاقيل واربعون درهما .

فى المجتمع سلعة تباع وتشترى وتقوم بالدرهم والدينار، ولكنها كنز الانســانية ووعاؤها الذى يحمل الى الأجيال القادمة قادتها وزعماءها وعلماءها • وهى تنقاد بالعاطفة الى البطولة والذكاء والاقتدار ، وتزف الى قرينها اما الى استقرار واطمئنان أو الى فرقة بالمعروف وتسريح باحسان•

..

ولكن من طبيعة الانسان أن يسعى بأنانيته الى التملك والسطوة وحب النفوذ • وقد تتنــاسى المرأة عواطفها نحو من تحب رغبة فى الملك والسلطان كما فى قصة سيميراميس •• وقد تنقاد استجابة لتحقيق مطمع سياسى كما فى قصة «قطر الندى» التى سنوردها مفصلة ضمن الأعراس الثلاثة موضوع هذا الكتاب •• وقد ترضى بعلها امتثالا لأمر وليها فتعاشر بغيضا الى قلبها ثم لا تلبث أن تفــارقه ، كما فى قصة هند والحجاج عندما وضعتها المقادير زوجة له • فلقد وقفت يوما تتأمل حسنها أمام المرآة وأنشدت تقول :

وما هند الا مهرة عربية
سليلة أفراس تحللها بغل
فان ولدت مهرا فلله درهـــا
وان ولدت بغلا فجاء به البغل

وكان الحجاج عندئذ آتيا من وراء حجــاب • وصك أذنيه ما سمعه من هند ، فقال مغيظا حانقا :

« يا هند ، لقد كنت فبنت » .

ويعنى بذلك أنها كانت له زوجة فأصبحت مطلقة بائنة بمقتضى قوله هـذا . وسرعان ما أجابته هند على الفور بقولها :

« لقد كنا فما فرحنا ، وبنا فما ندمنا » .

وتعنى بذلك أنها كانت زوجة للحجاج على كره منها فما فرحت يوما بعشرته ، وطلقت الآن بالبينونة عند حد قوله ، فما ندمت على هذا الفراق بالطلاق .

ويصـل الأمر الى الخليفة عبد الملك بن مروان ، فيعجب من فصاحة هند . ويحاول أن يعزيها عما أصابها فى زواجها من الحجاج فيخطبها الى نفسه . وتجيبه هند الى خطبته ، الا أنها تشترط أن يقود الحجاج هودجها من بيتها الى قصر الخليفة . ويقبل الملك . ويسير الحجاج بالهودج ومن فوقه هند التى ما كاد الطريق ينتصف حتى تلقى أمام الحجاج بدينار من ذهب ثم تصيح : « يا جمال ، لقد سقط منى درهم » . فيتناوله الحجاج من الأرض قائلا : « انه ليس درهما ولكنه دينار من ذهب » . فتجيبه هنـد فى تشف : « الحمد لله الذى أبدل بدرهمى دينارا » .

ويبتلع الحجاج على مضض منه تلك الاجابة القاتلة .. ولكنها زوجة أمير المؤمنين .. !!

والقصص العربى ملىء بهذه الألوان جميعا ، وفيه المزيد لمن يريد أن يستزيد • ولعل من أطرفها تلك القصة التى يروونها عن غرام يزيد بن معاوية :

مرض يزيد بن معاوية ، ولم يكن مرضه الا لوعة الحب الذى يكنه لزينب بنت اسحاق وكانت زوجة لعبد الله ابن سلام القرشى • وما كادت أخته رملة تعلم بالأمر حتى هونته على أخيها يزيد • وعرضت الأمر على أبيها الذى ترك لها التصرف فيه بما تراه • وأطاع معاوية ما رأته ، فأرسل الى عبد الله بن سلام من يخبره بأن له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها حليلا غير عبد الله لدينه وفضله وشرفه ، ورغبة منه فى تكريمه وتقريبه • فيفد الى معاوية فرحا بعرضه السخى • ويستعرض معاوية الأمر مع ابنته من وراء حجاب وعلى مسمع من عبد الله ، فيكون جواب رملة أنها لا تكره ما اختاره أبوها ولكنها تخشى الضر ولا ترضى بحياة الضرائر سيما وأن زينب زوجة عبد الله تشتهر بأنها من أجمل نساء العرب •

ويطمئن عبد الله معاوية وابنته بأنه سيطلق زينب •• ويتم الأمر عند هذا الحد •

وتنقضى العدة • وتصبح زينب فى البينونة الكبرى حيث لا تحل بعد ذلك لعبد الله ما لم تتزوج من غيره •

وهنا فقط تبدى رملة معارضتها فى الزواج من عبد الله بحجة أنه رجل لا يطمأن الى معاشرته والحياة معه •

فقد غدر بزوجته زينب وسرحها ظلما ، على الرغم من مالها وجمالها ووفائها له، وما ذلك الا لمجرد التلويح له بتزويجه من ابنة معاوية ٠

ويذهب الى زينب من يخطبهـا الى يزيد من قبـل معاوية ٠ ويعلم الحسين بن على رضى الله عنهما بأمر المكيدة، فيطلب الى رسول معاوية أن يخطبها أيضا له ، ثم يترك لها الخيار ٠ ولكن زينب تجيب بقولها :

« لا أختار على الحسن بن على أحدا وهو ريحانة النبى وسيد شباب أهل الجنة » ٠٠

ويصل الأمر الى معاوية فيقول متغيظا :

أنعمى أم خالد　　　　رب ساع لقاعد

ولكن لم يلبث الحسين أن ردها الى زوجها قائلا :

« ما أدخلتها بيتى بالزواج رغبة فى مالها وجمالها ، ولكن أردت احلالها لبعلها القرشى » ٠

***

واننا لنعجب ويشـتد بنا العجب لهؤلاء المارقين ، وهم مسلمون ، على سنن الهدى الاسلامى ٠ فجعلوا من أمور الزواج سـبلا وعرة تحطمت فيهـا الآمال وخربت المدائن والديار ٠ كل ذلك من أجل نزوة طائشـة أبرزوا بها فساد أحلامهم وقصر نظرهم عن المدى البعيد فى حياة الأمم والشعوب ٠ فجعلوا من حفـلات الزواج ومراسيمه معارض للتفاخر والأبهة والبذخ والاسراف ٠ وانتهبوا فى

ذلك ما لدى الشعب من طريف وتالد · وأنفقوا فى سفه وابتـــذال أمـواله وأقواته ، غـير عابئين بحســاب الله ولا بحساب التاريخ ·

وسنرى فى الأعراس الثلاثة التى سنقص خبرها فى هـذا الكتاب أتراحا ماتت فيها الضمائر وانعـدم الوازع الدينى فى السلوك والعمل · ولكن كلمة التاريخ ستظل السـيف المصلت على رءوس العابثين والهـازلين بحقـوق الشعوب · ولقد صدق المثل القائل : « ألسنة الخلق أقلام الحق » ·

***

ولكن قبل المضى فى سرد قصص تلك الأعراس الثلاثة التى اخترناها لتكون موضوع هذا الكتاب نرى لزاما علينا أن نستعرض قبل ذلك صورة عامة لتقاليد الزواج وحفلات العرس فى مصر فى تلك الفترات التى وقعت فيها حوادث هذه الأعراس ، ليتبين القارىء مدى مغالاة أصحابها فى الانفاق عليها ، وسفه اسرافهم فيها ·

كان العرف المتبـــع عادة فى أفـراح أثرياء القـوم وسراتهم فى تلك الحفلات أن يتم « عقد القران » · ثم تمضى المدة ما بين القران والزفاف بما لا يتجاوز عشرة أيام تنقضى كلهـا فى ليـــالى أفراح متصلة وأيام سرور متتالية · ثم تختتم بيوم « الحمام » وهو من أوضح مظاهر الابتهاج العائلى ، حيث تمضى العروس الى حمام عام فى موكب نسوى يضم قريباتها والأتراب من صديقاتها ، وهى

فى أحسن ما تتجمل به فتاة • يتقدمها حشد من الموسيقيين والمغنيات والراقصات • ثم تعود العروس فى مثل هذا المظهر البهيج عند المسير الى بيتها ، وذلك قبل الزفاف بيومين •• وهذا أيضا شأن الزوج فى ذهابه الى الحمام وايابه منه بين أصدقائه وأقاربه فى مثل هذا الموكب الموسيقى البديع •• والحمام فى ذلك اليوم يكون خاصا بالعروسين على التعاقب دون أن يغشاه أحد من الجمهور •

ويعقب ذلك حفل الزفاف حيث تسير العروس فى مساء اليوم المعين الى بيت الأسرة الجديدة فى أكبر جمع من الأسرتين ، تتقدمه الموسيقى بطبولها الكبيرة ومزاميرها الصادحة التى تملأ أصواتها أجواز الفضاء • ويسير الموكب متمهلا ومتخيرا أبعد الطرقات لاعلان ليلة الزفاف •

وتقوم طائفة « العوالم » فى تلك الأفراح بدور هام للسيدات داخل المنازل ينشدن أحب الأغانى الى المستمعات • وهذه الطائفة كانت تحترف هذا الفن احترافا ، وتهتم باستظهار الأهازيج والاغنيات الخفيفة المناسبة والمعبرة عن تهنئة العروسين ••• ولفظ « العوالم » ليس مشتقا من « العلم » انما مرده لفظ فينيقى قديم هو « علماء » (بفتح العين وسكون اللام) ومعناه فتاة أو عذراء مغنية ، وهو يقرب فى هذا المعنى من اللفظ العربى « قينة » • ويبدو أن الأمر لا يقف عند مجرد الاشتقاق اللفظى ، بل قد تكون المهنة نفسها تمت الى هذه

الأصول بعرق فى التاريخ • ولعل أول من ظهر من مغنيات هذه الطوائف كن فتيات فينيقيات •

وفى تلك الأفراح كان الأغنياء وسراة القوم يستأجرون هؤلاء المغنيات فيؤدين غناءهن من وراء حجاب بحيث لا يراهن الرجال من الضيوف والمدعوين متخذات مكانهن خلف نافذة من نوافذ الحريم تحجبهن المشربيات • وكن يتمتعن بمكانة ممتازة • ومن بينهن العازفة البارعة وذات الصوت الساحر المؤثر فى المستمعات ومن يصل اليه الصدى من المستمعين وكان لهن فوق ذلك أخلاق تكسبهن الكثير من الاحترام بما جعل الحاضرات ينثرن عليهن الأموال من الذهب النضار •

وفى محافل العرس والزفاف ينال الرجال نصيبهم من الموسيقى والغناء الذى كان يطلق على محترفيه اسم « الآلاتية » ، وكانوا فى حالة لا يحسدون عليها • فمن ضآلة الأجر ، الى ازدراء الشخصية ، الى ضعف البيئة وقلة الثقافة الفنية فى الغالبية منهم • ويكفى أن تعلم أن أجر أحدهم كان عشرة قروش أو خمسة عشر فى الليلة لتتبين ما كانوا يعانونه من المحنة فى تلك المهنة •• ومن الانصاف أن نقرر أن عددا غير قليل من أولئك المحترفين كانوا أشبه بالنجوم اللامعة فى غضون تلك الظلمات • فقد كان من بينهم الوشاحون المهرة والعازفون والمغنون الذين لو أدركوا عصر التسجيل لجاءوا بالمعجز المبدع •

ولعلنا بعد هذا العرض السريع للزواج طرائقه وطرائفه وتقديم صورة عامة لحفلات الزفاف ، قد مهدنا لقصص أعراس ثلاثة تعتبر أمثلة لأفراح انقلبت أتراحا ، لما صاحبها من خروج عن الحد ومروق عن جادة الصواب ، فعادت على أصحابها بالهلاك والدمار نتيجة استنزاف أموال الدولة وتعريض الأمة للفقر والهوان والشعب للفاقة والحرمان .

(١)

زواج أسماء

(قطر الندى)

ابنة خمارويه

قطر الندى

انحدر طولون من أصل تركى • وكانت أسرته تقيم فى بخارى ، وقد أرسله والى هذه المدينة عام ٢٠٠هـ/٨١٥م الى المأمون فى بغداد ضمن عدد من المماليك ، وفقا لتقاليد الحكم وقتذاك فى أن يرسل الولاة الى الخلفـــاء جزية من المـال والرقيق • فألحقه المأمون بحاشيته ثم قلده رياسة الحرس • ويظل يشغل هذا المنصب فى بلاط خلفاء بنى العباس الذين تعاقبوا بعد المأمون الى أن وافته المنية فى عهد المتوكل •

وأسند الخليفة ما كان بيد طولون من الاعمـــال الى ابنه أحمد الذى ولد ببغداد فى رمضان عام ٢٢٠هـ/٨٣٥م، وقد عنى أبوه بتربيته وارتفع شأنه حتى صار موضع ثقة الجميع ، وأظهر احمد هـذا من الكفاية فى خدمة الخليفة المتوكل ما جعله موضع تقدير كبار رجال البلاط العباسى وبخاصة الضباط الاتراك ، حتى لقـد زوجه يارجوخ أحد هؤلاء الضباط ابنته خاتون •

وقد بلغ من ضعف الخلفاء يومئذ أن صار الأمر كله بيد الموالى من الترك والعجم • وكان أحمد بن طولون على الرغم من أنه أحد هؤلاء الموالى ، يزدريهم اعتقادا منه أنهم لا يستحقون تلك المراتب التى بلغوها •

وقتل المتوكل على سريره بأيدى مواليه ، وتولى بعده ولده المنتصر . ولم تمض بضعة أشهر حتى قتل المنتصر وتولى بعده ابن عمه المستعين . وبلغ سلطان الموالى حدا من الطغيان جعل الخليفة يلتزم قصره حتى يأمن شرهم وينجو من دسائسهم .

***

وخلع الموالى الخليفة المستعين ، وولوا مكانه ابن عمه المعتز . ودعى أحمد بن طولون ليصحب المستعين فى منفاه الى مدينة واسط ليكون حارسا عليه . وقد أرادت أم المعتز قتل المستعين حتى لا تنازعه نفسه فى العودة الى العرش ، فكتبت الى أحمد بن طولون : « اذا قرأت كتابى فجئنى برأس المستعين ، وقد قلدتك واسط » . وكان أحمد بن طولون عالى الهمة كريم الخلق ، ينأى بنفسه عن الاشتراك فى مثل هذه الدسائس والمؤامرات ، فلم يقبل تحقيق رغبة أم المعتز فى قتل المستعين ، وقال لنفسه بعد أن قرأ رسالتها : «بئست الامارة تقلدنيها امرأة لمقتل خليفة له فى عنقى بيعة» . بل لقد عرف أحمد بن طولون للخليفة المخلوع قدره فأولاه حقه من التجلة والاحترام ، وترك له حرية الغدو والرواح فى منفاه كما يشاء .

وأكبر القوم شهامة ابن طولون ، وبلغ منزلة مرموقة عند الجميع من عرب وترك وعجم على السواء .

***

لقد امتدت أملاك الدولة العباسية حتى شملت أعظم

امبراطورية اسلامية عربية · وكانت مصر أغلى درة فى تاج الخليفة نظرا لما كان يحصل عليه من عظيم خراجها وثمين هداياها · وكانت كذلك فى أعين من يتقلد أمورها من الولاة ، فما هى فى نظرهم جميعا الا ضيعة للاستغلال ، لا يهمهم من شئونها غير جمع المال والخراج الذى يؤدونه للخليفة وما يفيض عليهم بعد ذلك من الثروة والجاه · أما الشعب فكان هو البقرة الحلوب التى تستنزف بجميع وسائل العسف والاستبداد ·

وكان الكثيرون من الولاة اذا ما أقطعهم الخليفة ولاية ما يفضلون الاقامة فى بغداد ، وأن يظلوا الى جانب الخليفة فى سامرا ، يباهى كل منهم بامارته وجاهه ، وليأمن كل منهم ما يمكن أن يحاك ضده من المؤامرات والدسائس فى بلاط الخليفة · ولذلك كانت غالبية هؤلاء الولاة ينيبون عنهم من يقوم بأمر ولاياتهم وادارة شئونها ، مكتفين فى ذلك بما يحمل اليهم من ثروتها وثمارها · وكان فى ذلك ما فيه من هوان لمصر واغفال لمرافقها ومضاعفة لما يقع من الظلم على أهلها ·

وبلغ «باكباك» أو « بقبق » التركى منزلة فى قصر الخليفة المعتز سما بها على سائر أقرانه من موالى الترك والعجم · وأراد الخليفة أن يعلى من قدره فأقطعه ولاية مصر · وكان «بقبق» هذا قد تزوج بأم أحمد بن طولون بعد وفاة أبيه ، وقام على استكمال تربيته ورعايته · فكان من الطبيعى أن يرى فيه خير من ينيبه عنه فى ادارة شئون مصر حين أقطعه الخليفة ولايتها ·

وحضر أحمد بن طولون الى مصر نائبا عن « بقبق » فسار فيهـــا سيرا حكيما . واشتهر بين النـــاس بحسن سياسته وتدبيره للأمور .

وسارت الأحداث الى أن قتل الخليفة المعتز فى سامرا، وبويع المهتدى بالخلافة ، كما قتل « بقبق » . وآلت ولاية مصر الى « يارجوخ » التركى الذى كان أحمـــد بن طولون متزوجا من ابنته ، فأقره نائبا عنه فى ولايته التى امتدت الى الاسكندرية والصعيد وبرقة . ومنحه سلطانا كاملا فى ادارة شئونها .

***

واستطاع ابن طولون بما امتاز به من رجاحة العقل وبعد النظر أن يكسب حاشية الخليفة فى بغداد بما كان يغمرهم به من ثمين الهدايا وأن يأمن دسائسهم ومؤامراتهم . كما استغل عدم استقرار أمور الخلافة وتعاقب الخلفاء على عرش الدولة العباسية حيث يقتل بعضهم بعضا أو يقتلهم مواليهم من الترك والعـجم الذين كانوا هم بدورهم أيضا يتصارعون فيقتلون أنفسهم بأيديهم .. استغل ابن طولون ذلك فدعم سلطـــانه فى مصر حتى اســـتتب له الامر ، وأصبحت له وحده السيطرة التامة على جميع شئون البلاد، بعد أن تخلص من عامل الخراج فيها الذى كان يعين من قبل الخليفـــة وله السلطة المطلقـــة فى تحصيل الاموال وفرض ما يراه من أنواع الضرائب . كما تخلص ابن طولون أيضا من عامل البريد الذى كان يعين كذلك من قبـــل الخليفة

ليرفع اليه أخبار مصر فى سرية تامة وليس لأحد عليه من سلطان ٠

وكان ابن طولون واسع الحيلة حسن التدبير فاتخذ بطانته من أعيان مصر بدلا من جماعات الترك والمرتزقة من الاجانب ٠ كما وثق علاقته بالشعب ٠ وبنى جامعه المشهور ٠ وأنشأ المصانع لمختلف المهن ٠ وشيد أفخم الدور والقصور ، مما جعل المصريين يلهجون بذكره والثناء عليه ويستقبلون عهده بالرضا والقبول ٠

كل ذلك مهد لابن طولون السبيل لاستقلاله بمصر ٠ فأعد العدة للدفاع عنها ، وجهز جيشا قوامه مائة ألف فارس ومالا يحصى من المشاة وسفن الغزو وعتاد الحرب برا وبحرا ٠

ولم تمض سنوات قليلة حتى اتسعت رقعة الدولة الطولونية ٠ وكان ذلك كله يجرى فى تدرج غير ملحوظ ، وعلى حساب ذلك الاضطراب الذى شمل بلاد الخلافة العباسية ، لا سيما وأن الخليفة المعتمد ـ الذى ولى الخلافة بعد قتل المهتدى ـ كان ضعيفا مستهترا غارقا فى اللهو والمجون مشغولا بمباهج الطرب والغناء ، لا يكاد يفيق من الشرب ولا يعنيه من أمر الدولة شىء ، تاركا لأخيه «الموفق» ادارة جميع شئونها حتى لقد جعل هذا الاخير من نفسه وصيا على الخليفة وغل يده عن التصرف المسف فى أموال الدولة ٠

وبلغ من حسن سياسة أحمد بن طولون فى الوقت الذى كان يعد العـدة للاستـقلال بمصر ويعمل جاهدا فى سـبيل ذلك شيئا فشيئا حتى صار له شعار خاص وراية معينة واستقل فى كل شئون الدولة ٠٠ بلغ به أن فعل ذلك كله دون أن يشعر بغداد بانقطاع صلته بها فظل يؤدى لها الخراج على توالى الاعوام حتى بعد أن أصبح أقوى من الخليفة نفسه ٠

وكان أحمـد بن طولون يظهر فى كثـير من الاحايين بمظهر المدافع عن الخليفة ضد أخيه (الموفق) ٠ ولم يكن حرصه على استرضائه الا استغلالا لمركزه الدينى الذى كان الخليفة ما يزال متمتعا به بين أفراد الشـعوب الخاضعة للخلافة ٠

ولم يحصر المعتمد ولاية العهـد بعده فى رجل واحد بل جعلهـا لرجلين قسم شئون الدولة بينهما وهما : ابنه «جعفر المفوض» الذى جعله ولى عهده الاول وخصه بولايات مصر والمغرب ، وأخوه «الموفق» الذى جعله ولى عهده الثانى وخصه بشئون المشرق ٠

وبقـدر ما كان عليه «الموفق» من سداد الرأى وما اتصـف به من الصرامة والحزم فى تصريفه للامور ، كان «المفوض» ابن أخيه ضعيفا لينا رخوا ٠

وقد وجد ابن طولون فى هذا التقسيم ما ثبت مركزه فى مصر ــ دولته الفتية ــ التي اتسـعت رقعتها وقـوى سلطانها ٠

ثم حدث فى ذلك الحين أن شق « ابن الشيخ » عصا الطاعة على الخليفة بعد وفاة أبيه «أحمد بن عيسى» الذى كان واليا على فلسطين والاردن فأعلن استقلاله بهما وعدم اعترافه بالخليفة ، وذلك فضلا عن استيلائه على سبعمائة وخمسين ألف دينـــار كانت مرسلة من مال مصر الى مقر الخلافة فى بغداد ٠

واستنجد الخليفة لاخضاع ذلك الثــائر بابن طولون الذى عرف كيف يستغل الفرصة فاستكمل جيشه القوى وجهزه بأحــدث ما كان معروفا وقتذاك من معدات الحرب واشترى عددا كبيرا من مماليك الترك والسودان والمرتزقة، ثم خرج لملاقاة ابن الشيخ ٠ وما كاد ابن طولون يبتعد عن حدود مصر حتى تلقى من الخليفة أمرا بالعـــودة اليها ٠ وأحسب أن « الموفق » كان وراء الدعوة الى تلك العودة ، فقد كان على دراية تامة بنوايا ابن طولون وما يبذله من العمل المتواصــل لاستــقلاله عن الخــلافة وتوسيع رقعة ولايته ، وقد خاف أن يكون الظفر فى تلك الحرب حليفة فيتوغل فى تلك البلاد ثم يضمهـــا الى ملكه ٠ لذلك فقد أوعز للخليفة باصدار أمره لأحمد بن طولون بالعودة الى مصر ٠ ولكنه عاد اليها بجيشه القوى سليما ، فأصبح لمصر لأول مرة جيش مستقل عن الخـــلافة كامل العدد والعدة مستكمل النظام مستعد للعمل وقت الحرب والسلم ٠

عرف «الموفق» بالحزم وحسن التقدير للامور ٠ وكان يخشى ابن طولون ويعرف مدي خطورته على الخلافة٠ ويعلم

يقينا ان أمرا واحدا لو تم له لانهارت الدولة الطولونية من أساسها ، ذلك هو ما تهيىء له أرض وادى النيل الخصيب من الثراء وما تمده به من المال الذى يمكنه من تجهيز جيشه القوى ، واعداده لحرب لا طاقة للخلافة بمقاومته فيها . فكان دائم التدبير لأمر التغلب على ابن طولون ، لا من ناحية الحرب ، بل من ناحية نفاد المال الذى بين يديه .

أما ابن طولون فكان يعلم هو الآخر أن الخلافة لا بد صائرة يوما الى «الموفق» وأن للخلافة فى نفوس المسلمين فى سائر البلاد من القوة ما يمكن أن يفيد منه «الموفق» فى تغلبه على الدولة الطولونية .

لهذا كان بين الموفق وابن طولون عداوة يحس بها كل منهما فى أعماقه ، وان كان كلاهما يظهر للآخر غير ما يخفيه ويبادله من مظاهر الود والمجاملة غير ما يكن له ، ويدبر من الامر فى خفاء ما يعتقد أن فيه تحطيما لقوة صاحبه واضعافا لسلطانه .

وبات كل منهما يتربص بالآخر ، حتى حدث أن ضيق «الموفق» الخناق على أخيه المعتمد لنزفه واسرافه فى ضياع الاموال ، واستغراقه فى اللهو والمجون فاحتجزه فى أحد قصور سامرا ، ومنع عنه التصرف فى أى شىء من أموال الدولة حتى لم يبق للخليفة الا لقب أمير المؤمنين فحسب .

واستغل أحمد بن طولون هذه المناسبة فبعث الى الخليفة بمائة ألف دينار وبكتاب يعرض فيه نقل كرسى

الخـــلافة الى القاهرة حتى يتخلص من هـذا الضيق الذى فرضه عليه أخوه الموفق ٠٠ ورحب الخليفة بهذا العرض ، وقام من سامرا فعلا قاصدا مصر ٠ ولكن الموفق علم بالامر٠ فأغضبه ذلك ورأى فيه اعتــداء من ابن طولون على الخلافة ونكثا منه بالعهد وخروجا على تبعيته لها ٠ فأمر بخلعه من ولايته على مصر ، وعقد مكانه فيها لاسحاق بن كنداج أحد قواده ، تاركا له أمر طرد ابن طولون من مصر وتأديبه ٠

ولم يــكن هــذا الخلع ولا هــذا التعيين غير شيء صــورى فى غير مقدور الخــلافة تنفيذه ، فانها فى ضعفها وقلة مواردها المـــالية علاوة على ما يهددها من الثــورات المتتــابعة التى تقــوم بهــا الشــعوب المختلفة الخاضعة لسلطانها ، واستهتار جنودها الذين لم يعد يعنيهم من أمر حماية الدولة شيء نظرا لمـــا كانوا يقضونه من الشــهور الطويلة دون أن تصرف لهم أرزاقهم أو شيء من رواتبهم٠٠ انها فى كل هــذه الظروف أعجز من أن تواجه ابن طولون وقد امتلأت خزانته بالمال الذى أغدق منه على الجند ممـا جعلهم أشد الناس حفاظا عليه وولاء له ٠ وقد أصبحت له اليد المطلقة فى البلاد ، واطمأن الشعب الى حكمه ٠ فلم يأبه لأمر الموفق، بل واصل فى اطمئنان عيشة البذخ والرفاهية بفضل مانعمت به مصر من رخاء لم يتوافر لها من قبل ٠ فقد روى المؤرخون أن القمح فى ذلك العصر كانت العشرة أرادب منه تشـــترى بدينار واحد ، وهو ثمن يكاد يكون خياليا بالنسبة لما حل بمصر بعد ذلك من الغلاء الشديد ٠

عاش ابن طولون مستمتعا بجميع أسباب الرفاهية ، حتى لقد بلغت نفقات مطبخه ألف دينار فى الشهر ، كما كان يتصدق بضعفها على الفقراء والمساكين ، ويوزع عليهم الاطعمة ويقيم لهم المآدب الكبيرة فى المواسم والاعياد والمناسبات الدينية .

***

أما قصره فكان مثالا للفخامة والأبهة ، وله عدة أبواب هى كما ذكرها المقريزى فى خططه : باب الميدان ومنه كان يمر الجند ، وباب الخاصة للمقربين ، وباب الصوالجة وكان يؤدى الى الميدان الكبير المخصص لألعاب الصولجان ، وباب الحرم الذى كان لا يدخل منه الا النساء والخصيان ، وباب الصلاة وكان يوصل الى جامع ابن طولون ، وباب الجبل وتشرف عليه تلال المقطم ، وباب الساج نسبة الى الخشب الذى اتخذ منه ، وباب دعناج والدرمون نسبة الى حاجبين كانا يجلسان عندهما ، وباب السباع نسبة الى تمثالين لسبعين كبيرين كانا على جانبيه .

وتوفى أحمد بن طولون فى العاشر من ذى القعده عام ٢٧٠ هـ . وعلى الرغم من كثرة ما كان ينفقه فى بذل وسخاء فقد ترك خزائن مصر مليئة بالمال ، حتى لقد قدرت الثروة التى تركها بعد وفاته بما يأتى : ـ

١٠٫٠٠٠٫٠٠٠	دينار
٧٫٠٠٠	من الموالى
٢٤٫٠٠٠	من الغلمان

٧٫٠٠٠	من الخيل
٢٫٧٠٠	من الجمال
٦٠٠	من البغال

ولم يستطع « الموفق » أن ينال من ابن طولون فى حياته لما كان يتصف به من بعد النظر وحسن السياسة وصدق الفراسة وشدة الحذر . كما أنه كان نهازا للفرص يفيد من كل مايجد أمامه من الظروف والمناسبات .

وكان أهم عامل أعجز « الموفق » عن النيل من خصمه شدة ثراء مصر وما توافر في خزائنها من المال الذى يعتبر دائما عصب الدولة ، والدعامة التى تقوم عليها سائر شئونها ... لم يستطع « الموفق » أن ينفذ الى خزائن مصر فى حياة ابن طولون ، فهل سيتمكن من ذلك بعد وفاته ، ويصل بدهائه وسعة حيله الى افلاس تلك الخزائن ، وتقويض عرش الدولة الطولونية ؟

ذلك ما ستروية قصة زواج قطر الندى ...

***

مات أحمد بن طولون ، وخلفه ابنه خمارويه الذى رأى من حسن الرأى أن يتبع نهج أبيه ، وأن يسير على سياسته الودية مع خلفاء بنى العباس ، وأن يشعرهم بولائه التام لهم ، مواظبا على ارسال الخراج السنوى الذى كان يرسله أبوه الى بغداد . ثم هو بعد ذلك مطلق اليد فى ملكه الفسيح .

وكان « أبو العباس » ابن الموفق أشد كراهية للدولة الطولونية من أبيه . وسرعان ما رغب فى محاربة خمارويه، ولكن والده بما له من طول خبرة وحسن دراية نصحه بالتريث فى الامر اذ لا قدرة للخلافة فى وقتها اذ ذاك على مناوأة الدولة الطولونية وملاقاة جيشها القوى فى البر والبحر وأن من الخير أن ينفذ اليها عن طريق نفاد المال من خزائنها .

وفى الحقيقة أن مصر فى عهد خمارويه كان بيت المال فيها عامرا بالمال الوفير مما جعله ينغمس فى حياة الترف والمغالاة فى الاسراف والبذل حتى لقد حول الميدان الفسيح الذى كان بجوار جامع ابن طولون الى بستان بديع غرس فيه أنواع الزهور والرياحين والأشجار ، ونقل اليه من البلدان المختلفة الكثير من أصناف الشجر المطعم . وبلغ من ترف خمارويه أن كسا جميع أجسام النخل فى هذا البستان نحاسا مذهبا ، وجعل بين النحاس وأجسام النخل مواسير من الرصاص يجرى فيها الماء . وكان الماء ينحدر من تحت هذا النحاس المذهب الى فساق تفيض بالماء الى مجار تسقى سائر البستان . وتفنن فى هندسة الزهور والرياحين فعمل منها نقوشا وكتابة يتعهدها البستانى حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وسرح فيه أصناف الحمام والطيور المغردة وجعل لها أبراجا وعيدانا مثبتة فى جوانبها لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجاوب بعضها بعضا بالمناغاة . كما سرح فى البستان الطواويس والدجاج

الحبشى ونحوها • وأقام بالبستان مجلسا خاصا له أسماه دار الذهب طلى جدرانه جميعا بالذهب واللازورد ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة ونصف من خشب صورت فيه صورته والمغنيات اللاتى يغنينه فى أحسن منظر وأبهج تنسيق • ولونت فيها صور الأجسام بألوان تشبه ألوان الثياب من الأصباغ العجيبة فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا • ولم يكتف خماروية بكل هذا الاسراف والترف والاغراق فى البذل ، فعمل فى هذا البستان فسقية ملئت بالزئبق وقد طرح فوقه فراش ملىء بالهواء ومشدود بزنانير من الحرير فى حلقات من الفضة ، فاذا نام عليه ارتج الفراش ارتجاجا ناعما • فكان يرى لهذا فى الليالى المقمرة منظر عجيب من ائتلاف نور القمر بنور الزئبق • وجعل فى ناحية من نواحى القصر دارا للسباع، وقد خصص فيها لكل سبع بيت يفتح من أعلاه • وقد فرشت بيوت السباع وما حولها بالرمل الملون يجدد من حين لحين •

كل ذلك وأكثر منه كان يعلم بأنبائه « الموفق » وابنه « أبو العباس » فيزدادان نقمة على خماروية الذى لم يكن فى نظر الوالد وابنه الا مجرد وال من ولاة الخلافة ، وليس له أن يستمتع بكل هذا السلطان ، انما ينبغى أن يكون هو وأمواله وقوته وامكانيات ولايته فى خدمة الخلافة• ولئن اتفق الاثنان فى شدة كراهيتهما للدولة الطولونية ورغبتهما الأكيدة فى تقويض عرشها فقد اختلفت خطة كل

منهما فى طريق بلوغ هذا المأرب . فلقد كان « الموفق » بما جبل عليه من الروية وحسن التدبير ، وما اكتسبه من الخبرة والنضج ، دائم النصح لابنه فى وجوب التريث اذ أنه لا قبل للخلافة بملاقاة جيوش مصر الجرارة وهى تامة الاعداد والتجهيز ، تسندها خزائن مليئة بالأموال . ويؤكد دائما لابنه أن النصر على خمارويه لن يأتى الا عن طريق العمل على افلاس خزائنه .. أما ابنه « أبو العباس » فكان شابا متوثبا وفارسا شجاعا ، تجرى فى عروقه حماسة الشباب ، ويضيق صدره بصبر أبيه على تمادى الدولة الطولونية التى استفحل أمرها واتسع سلطانها . كما كان يعتقد أن الزمن يجرى فى صالح خمارويه ، وهو فى كل يوم يزيد قوة وشوكة ، وقد استقر ملكه واتسع حتى أصبح نفوذه خطرا على الخلافة نفسها .

لم يطق أبو العباس الصبر على هذا الوضع ، وضاق صدره بنصح أبيه ، فاندفع بحماس الشباب على رأس جيش أعده لغزو الدولة الطولونية . وكان أكبر أمانيه فى النصر مفاجأة خمارويه المنغمس فى حياة الترف والنعمة . وأخرجت مصر لملاقاته جيشا قويا تحت امرة وزيرها « أبى عبد الله الواسطى » وسار جيش مصر مظفرا حتى جاوز الحدود الى الشام . وهنا وقع ما لم يكن فى الحسبان ... لقد خان « الواسطى » الأمانة ... كان قد قضى سنى صباه فى بغداد ، وله فى مقر الخلافة ذكريات وماض قبل رحيله الى مصر . واستغل « الموفق » بدهائه هذا الوضع

فأرسل اليه وهو على رأس جيش مصر رسـولا من بغداد يذكره بنشأته وماضيه ويغريه بالرجوع الى مقر الخلافة . واستجاب الواسطى لهذا الاغراء فخلع عنه شعار الدولة الطولونية ، واتخذ طريقه مع رسول الموفق الى بغداد تاركا جيش مصر بغير قيادة ، أو بغير أمير وفق اصطلاحات ذلك العصر . وأخذ جيش « أبى العباس » فى التقدم متوغلا فى مملكة آل طولون حتى فتح دمشق وانحدر الى فلسـطين قادما الى مصر .

وبلغ خمارويه خبر هذه الخيانة فجهز جيشا عدته سبعون ألفا من المصريين المزودين بالسلاح والزرد . وخرج بنفسه على رأس ذلك الجيش يطلب ملاقاة خصـمه ... والتقى الجيشان . وبعد قتال مرير تم النصر لخمارويه ، وانهزم ابو العباس هزيمة منكرة جعلته يفر عائدا بمفرده الى بغداد تاركا وراءه جنده وأتباعه فى أسوأ حال ، وقد وقعت الألوف منهم فى الأسر .

ولم يكتف خمارويه بهذا النصر المبين ، بل تقـدم بجيشه وتقدم حتى بلغ مشارف بغداد ،وأتم اخضاع جميع هذه الأصقاع ، حتى لقد دعى له على منـابر الموصـل والجزيرة .

وبعد تدخل الوسطاء تم الصلح بين بغداد وخمارويه، وكتب الخليفة المعتمد وثيقة الصلح بخط يده مؤكدا فيها اعتراف الخلافة بولاية خمارويه على البلاد الممتدة بين العراق

شرقا وبرقة غربا مدة ثلاثين سنة له ولأولاده من بعده ابتداء من عام ٢٧٩ هـ ٠

وعادت مواكب الأمير المنتصر الى القاهرة بعد غيبة طويلة وحرب موفقة ، وأخذت تطوف الطرقات وسط تهليل الشعب ، يتقدمها الحجاب والغلمان ثم الأمير كالهالة بين جنده وأتباعه ، ومن خلفهم المغانم وآلاف الاسرى مصفدة ٠ وانتهت المواكب عند قصر الامير وبستانه العجيب ذلك القصر المنيف الذى يطل فى ارتفاعه على الجبل والنيل وجميع مشارف عاصمة ملكه ٠

وهنا تظهر شهامة خمارويه وحسن سياسته ، فانه ماكاد يطمئن به المقام حتى أمر باخلاء سبيل الأسرى ، وأن يمنح كل واحد منهم ثلثمائة درهم ، واعتبارهم ضيوفا لا أسرى ٠ ثم وقف فيهم مخاطبا بقوله :

« انما أنتم ضيوفنا ، فمن أراد منكم أن يقيم بيننا فله علينا حق المواطن فى وطنه ، ومن أراد الرحيل فليرحل فقد أذنا له » ٠

فأكبر الأسرى علو همته وعظيم نبله ، وهتفوا له ولدولته ٠ وانضموا جميعا الى صفوف جيشه طائعين مختارين ٠

واستأنف خمارويه حياة الترف والبذخ بعد طول هذا الجهاد الذى مكن له استقرار دولته التى يسير نجمها فى صعود وسعود ، وأيامها فى ازدهار مطرد مستمر ٠

أما شئون الخلافة فى بغداد فكانت على النقيض من ذلك ، تسير من سيىء الى أسوأ ، تتتابع فيها الثورات ، ويتألب عليها الولاة • والخليفة المعتمد سادر فى لهــوه وقصفه بين القيان والندمان • كما كان ولى عهده « جعفر المفــوض » خامــل الذكر لا يكاد يحس بوجــوده أحد • أما « الموفق » فقد أصبح شيخا تقدمت به السـن وحطمته كثرة الحروب ، لا يقوى على مجابهة متــاعب دولة الخلافة العظمى • ولم يعد فى مقدوره الا أن يشفق عليها وهى تسير من ضعف الى ضعف ، واضطراب يكاد يعم جميع مرافقها • ولم يزده نجاح خمارويه وتألق نجمه وازدهار دولته الا تأججا لنار الحقد فى صدره ومضاعفـة لكراهيته له • وأما ولده « أبو العباس » فما كان لينسى أبدا هزيمته المنكرة أمام خمارويه • وهو ما زال ممتلئـا بحماس الشباب يطلب الثأر من خصمه ، وان كان يعلم علم اليقين أنه لا يقوى عليه فى حاضره ، بل وأنه عـلى العكس لا بد له من مصانعة الدولة الطولونية التى يكاد يعتبر خراجها السنوى نصف ايراد خزائن الخلافة • وأخيرا اقتنع « أبو العباس » برأى أبيه الذى جاءت الأيام مؤيدة له من أن انهيار الدولة الطولونيـــة لن يكون عن طريق الاقتتال معها ، طالما يعتمد جيشها القوى على خزائن عامرة بالمال وقدرات مادية توفر لها جميع أسباب النصر والظفر •

واذن فليكن التفكير فى الكيد لهذه الدولة الفتيـة عن طريق يؤدى الى افلاس خزائنها واضعاف قدراتها •

وتمر الأيام سراعا ، وتتوالى الحوادث ، فيقع « الموفق» فريسة مرض عضــال يسرع به الى نهـــايته · ويحس « أبو العباس » وهو ما يزال الشاب الثائر أن شـــئون الخلافة أصبحت أمانة فى عنقه بعد موت أبيه ·· لقد قصد من توه الى عمه الخليفة المعتمد ، وما زال به حتى رسم بخلع ابنه « جعفر المفوض » من ولاية العهد وجعلها مقصـــورة على « أبى العباس » وحده · فجمع السلطة كلها فى يده وأصبحت كل أمور الخلافة موكولة اليه · وأسرعت الأيام بوفاة المعتمد فبويع أبو العباس بالخـــلافة ومنح لقب « المعتضد » ·

***

والآن وقد أصبح « أبو العباس » خصـــم خمارويه وعدوه اللدود أميرا للمؤمنين ، فماذا سيكون موقف الدولة الطولونية منه ؟ ·

ذلك ما كان يجول فى خاطر خمارويه حين دخلت عليه ابنته « قطر الندى » وكانت أحب ولده اليه ، وقد جمعت بين نهايات المحاسن من الفتنة والجمال والظرف وقـــوة الادراك والذكاء وسرعة البديهة ·· وحين دخلت على أبيها كانت قد ناهزت دور المراهقة ونضج فكرهـــا واكتملت أنوثتها · فبدا رائع جمالها ، وغدا كل شيء فيها ينطق بما يحوطها من أسباب النعمة والرفاهية ·· وأخذت مع أبيها في حديث ينم عن عقل راجح وتفكير سليم ولباقـــة

عجيبة ، حتى لقد أوحى هذا الحديث الى خمارويه بامر خطير اعتزم القيام به ، وان كتمه الآن عن ابنته الى حين .

ان « قطر الندى » فى سن (١) على بن المعتضد الخليفة الجديد وولى عهده ، فلماذا لا يزوجها منه فيتم بتلك الزيجة ارتباط قوى بين الخلافة والدولة الطولونية يزيل كل ما يمكن أن يكون بينهما من عداوة وخلاف ؟ .

ولعل خمارويه قد ذهب فى هذا التفكير الى أبعد من ذلك فأراد أن يتم على يديه ماأخفق أبوه فى تحقيقه حين أراد أن يجعل الخلافةعباسية فى القاهرة ، فلماذا لا يجعلها خمارويه طولونية فى بغداد حين تئول الخلافة الى ولى العهد زوج « قطر الندى » المنتظر فتستولى عليه برجاحة عقلها ، وتقف من ورائه وقد أمسكت بجميع شئون الخلافة تديرها مسيطرة على أمير المؤمنين .. وربما كان خمارويه قد جمع تفكيره بين الأمرين معا ..

***

وصحت بغداد ذات يوم على موكب مصرى عجيب لم تشهد الناس مثله من قبل .. عدد كبير من الفرسان على سروج مذهبة يلبسون الديباج والحرير وبيدهم حراب من فضة ، يتبعهم غلمان نضرة الوجوه من مولدة الروم ، ومن ورائهم ما يربو على الخمسين دابة عليها لجم من ذهب أو فضة ، محملة بأثمن العطايا وأغلاها .. انها هدية

---

(١) وهو الذى صار فيما بعد الخليفة « المكتفى » .

خمارويه يحملها رسول منه الى الخليفة « المعتضد » مع كتاب خاص له ·

وجمع « المعتضد » وزراءه وأصحاب مشورته يعرض عليهم مضمون الكتاب ويشاورهم فى الأمر · فكان بينهم الموافق والمناهض ، حتى انتهوا بعد الفحص والتدقيق الى أن هذه هى الفرصة الذهبية التى طال انتظارها · فان هذا الزواج الذى يعرضه خمارويه سيكون فيه انهيار الدولة الطولونية ، نظرا لما يعرفونه عنه من شدة حبه للمباهاة والتفاخر ، وأنه لابد منفق فى تلك الزيجة ما تقفر معه خزائنه من المال ···

وأحسب أن « الواسطى » الذى كان الوزير الأول للدولة الطولونية فى عهد مؤسسها أحمد بن طولون ثم قائد جيوش خمارويه بعد ذلك ، وقد خان العهد ورجع الى بغداد مستجيبا لاغراء رسول « الموفق » ·· أحسب « الواسطى » هذا ، وهو العليم بدقائق الدولة الطولونية وجميع أسرارها كان وراء تأييد اتمام تلك الزيجة وافادة الخلافة منها بما يؤدى الى افلاس تلك الدولة الفتية وتقويض عرشها ·

واستدعى « المعتضد » رسول خمارويه ، وأبلغه فى جمع من جلسائه أن ينقل الى مولاه أنه قبل هديته ، كما أنه يرحب بمصاهرته · وأنه تقديرا للدولة الطولونية وامعانا فى توثيق العلاقة بها ، وزيادة فى تكريم خمارويه

فان ابنته « قطر الندى » ستزف الى الخليفة نفسه ، لا الى ولى عهده .

وعاد الوفد من بغـداد الى القـاهرة حاملا معه ثمين الهـــدايا لخمارويه ، وبشرى زفاف « قطر الندى » لأمير المؤمنين الخليفة المعتضد .

***

ولعل أكبر ما يوضح ترف خمارويه وتبذيره زواج ابنته « قطر الندى » وتجهيزها فى انتقالها الى بغداد فى اسراف وبذل من الاموال الطائلة بما أدى به وببيت المال فى مصر الى الافلاس .

يقول المؤرخ ابن دقماق : « انه حمل معها مالم ير مثله ولا سمع به الا فى وقته » .

ويقول المقريزى فى خططه ان خمارويه لم يبق طرفة من كل لون وجنس الا حملها معها .

ويقرر المؤرخون « أنه كان من بين هذا الجهاز دكة من أربع قطع من الذهب عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيـك قرط مغلق فيه حبة من الجوهـر لا يعرف لها قيمة . وكان فى الجهاز مائة هاون من الذهب يدق فيها العود والطيب ، وألف تكة ثمن الواحدة منهـا عشرة دنانير .

ولم يكتف خمارويه بهذا الاسراف فيما أعـده من جهاز لابنته ، فقد غالى كذلك في الانفاق على انتقالها من

مصر الى بغداد ، فأمر بأن يبنى لها على رأس كل مرحلة من مراحل هذا الطريق الطـويل قصر تنزل فيه « قطـر الندى» ، يعد كل منها بكل ما تحتاجه العروس فى سفرها من الراحـة وأسـباب الرفاهية • فكانت « قطر الندى » تسير فى رحلتها الى بغداد متنقلة بين القصور ، فاذا أتمت مرحلة من مراحل الطـريق وجدت قصرا قد فرش وأعد بكل أنواع المعدات • وكأنها فى هذه الرحلة الطويلة لم تبرح قصر أبيهـا ، حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢ هـ •

واذا كانت المصادر التاريخية لم تحص قيمة ما انفق فى هذا العرس ، فقد ذكر ابن خلكان أن مقدار صداق «قطر الندي» بلغ مليون درهم • وليس هذا بالشيء الكثير اذا قيس بما أنفقه خمارويه فى هذا العرس • ويكفى أن نذكر أن ابن الجصاص وهو الجواهرى الذى عهد اليه باعداد الجهاز نال وحده جائزة قدرها أربعمائة ألف دينار •

وقد أدت المغالاة فى هذا الجهاز الى افقار خمارويه وافلاس خزينة مصر • وتؤكد المصـادر التاريخيـة أن « قطر الندى » حين وصلت الى بغداد كان خمارويه فى هم مقيم وكرب شديد مما دعاه الى النقمة على ابن الجصاص الذى تولى أمر هذا الجهاز وأشار عليه بمحتوياته •

وتوفى خمارويه فى نفس عام الزفاف سنة ٢٨٢ هـ (٨٩٥ م) تاركا الدولة الطولونية فى درجة قصوى من الضعف والانحلال • وقد تولى زمامها بعـده طائفة من

أولاده تنقصهم الحنكة السياسية ، ويستندون على خزائن تركها خمارويه خاوية على عروشها ٠

ولم تقو الدولة الطولونية على البقاء بعد موت خمارويه أكثر من عشرة أعوام ظهر فيها ضعف الطولونيين ظهورا واضحا بما جدد رغبة العباسيين فى اعادة مصر الى سلطانهم المطلق من جديد ٠ وساعد على ذلك وفاة الخليفة المعتضد زوج قطر الندى ـ وكانت قد سبقته الى لقاء ربها وهى فى عمر الورد وريعان الصبا ـ واعتلاء « المكتفى » عرش الخلافة العباسية ٠

وزال حكم الدولة الطولونية بعد أن استمر زهاء ثمانية وثلاثين عاما ٠

***

وقد شاعت على أفواه الشعب تلك الأغنية الرمزية التى تحمل اسم « قطر الندى » ومطلعها :

الحنه يا الحنه يا قطر الندى

شباك حبيبى يا عينى جلاب الهوى

وأحسب أن تلك الأغنية فى لهجتها العامية الحديثة لا تمت بأصل الى هذا التاريخ الذى يتجاوز ألف سنة من القدم ٠ ولكن حسب هذه الأغنية أنها تعبير شعبى وتخليد فنى ، وان كان ما اشتملت عليه من المعانى فى بعض جملها هابطا فى مستواه ٠ وذلك يدل فى نفس الوقت على أن عرس « قطر الندى » كان قد بلغ شهرة ذات دوى حفظته الأجيال وأشاعته تلك الأغنية ٠

(٢)

زواج

أبناء وبنات

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

السلطان الناصر محمد بن قلاوون

ونسير مع قافلة الزمن عبر التاريخ خمسة قرون بعد الذى تقدم ، لنلتقى بعصر آخر من العصور التى مرت بها مصر ... عصر جمع المتناقضات : من نور وظلمة ، وقوة وضعف ، وعزم وخور ، وازدهار وانهيار ، وهناءة وشقاء ، وخصب وجدب ، وعز ومذلة ، وعدالة ومظالم .. انه عصر المماليك الذى استمر فى مصر حوالى ثلاثة قرون امتدت منذ انتهاء عهد الدولة الأيوبية عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م حتى فتحها الأتراك العثمانيون عام ٩٢٣ هـ / ١٥١٧ م

اشتهرت العصور الوسطى برواج تجارة الرقيق . ولم ينفرد بذلك شعب دون آخر أو جنس دون غيره . بل توافرت أسواقه فى كل مكان حيث تعرض الغلمان والجوارى الحسان والعبيد بضاعة يقبل على اقتنائها المترفون من الراغبين فى خدمة أو لهو . وكان النخاسون وهم تجار هذه السلع البشرية يحصلون على هؤلاء الفتيان والفتيات بطريق السرقة أوالخطف أو من أسرى الحروب والغزوات التى تشنها قبيلة على أخرى ، أو يشعلها المغيرون على أهل بلد آمن فيفرقون بين الولدان ويبددون شمل الأسر . وتؤخذ بسبب ذلك السبايا من النساء والجوارى والقيان . كما أنه قد ينتشر قحط ويعم وباء

فتهون حين ذاك أفلاذ الأكبـاد على أهلها فيفرطون فيهـا بالبيع تخفيفا لأعبـاء البلوى وسـدا للرمق . فينشـط النخاسون لشراء هؤلاء وهؤلاء بضاعة رائجة يتنافس فى اقتنائها الخلفاء والملوك والأمراء وذوو الثروة والجاه ، حتى لقد كان منهم من يدفع عشرات الألوف من الدنانير ثمنا لجارية جميلة أو قينة حسنة الصوت أو غلام نجيب .. وكثيرا ما كانت تدفع الأقدار بهؤلاء الرقيق الى حظ حسن يسـمو بهم الى أرفع المنازل ، فيصلون الى ما يصل اليه أحرار الرجال وعقيلات النساء من عز ورفاهية وسؤدد ، وقـد يبلغون فى ذلك أحيانا أوج المجـد ويتسنمون قمة السلطان .

ومما ساعد على الاكثار من شراء الرقيق غزو التتار (المغول) المتواصل لأواسط آسيا وبلاد التركستان وشرق آسيا الصغرى ، فكثر فرار الناس ذكورا واناثا أمام هذا الخطر الداهم .

وقد شمل الرق جميع الأجناس فكان منهم التركى والجركسى والقـوقازى والـرومى والفـارسى والحبشى والزنجى . وأروج ما كانت تجـارة الأرقاء فى الأجناس التركية والجركسـية لما اشـتهروا به من جمال الخلقة ووسامة الصورة وقوة البدن ورجاحة العقل . وقد ساعد على ذلك ما تعرضت له بلادهم من غارات مستمرة وحروب متواصلة .

وأصبح هذا النوع من الاسـترقان سنة سـائدة

وشيئا مألوفا عند الناس ، بل كانوا يرون فيه ضرورة من ضرورات المجتمع . ويقول هايد (Hayut) في كتابه « تاريخ التجارة في العصور الوسطى » : « ان تجار الرقيق من الأوربيين كانوا يجلبون الى مصر في كل عام نحو ألفين من المغول والجراكسة والروم والألبانيين والصقالبة من أهل الصرب والأتراك » .

ويقرر المؤرخون أن أحمد بن طولون كان أول من جلب المماليك من الأتراك والصقالبة الى الديار المصرية واستخدمهم في عسكرها مقتفيا في ذلك أثر خلفاء بني العباس . وحذا حذو ابن طولون من جاء بعده من خلفاء الفاطميين وملوك الأيوبيين ، فكان لمصر من هؤلاء نصيب كبير .

وقد أفردوا لأحداث السن من هؤلاء المماليك ثكنات أعدت لهم في القلعة ، يقيم أفراد كل جنس في جناح يختص به . ويعنى الحكام بتربيتهم وتنشئتهم تنشئة عسكرية . فاذا ما تم للمملوك الصغير الاحاطة باللغة العربية وحفظ ما تيسر من القرآن الكريم وألم بالكفاية من علوم الفقه والشريعة الاسلامية ، قاموا بتدريبه تدريبا بدنيا يتفق وسنه ، الى أن يجيد السباحة وركوب الخيل والمبارزة والضرب بالسيف والطعن بالرمح وجميع ضروب الفروسية .. ويظل المملوك في عداد الأرقاء حتى يظهر كفاءة ممتازة وتفوقا خاصا في الفنون الحربية ، وعندئذ يعتق ويصبح حرا . وتقطعه الدولة من الأرض وتمنحه من المرتبات

والكساوى ومن الأطعمة والخيول ما يضمن له حياة رغدة .
فاذا ساعده الحظ وظهر له بعد ذلك كفاءة نادرة منح لقب الامارة ، وأصبح له قصره الخاص وفرقته الموسيقية وحرسه المكون من مماليك قد اشتراهم هو بدوره ودربهم حتى يصبحوا جنودا له يحرسونه فى زمن السلم ويحيطون به في ساحة القتال اذا ما خرج للحرب .

وقد اشترى الملك الصالح بن أيوب عددا كبيرا من هؤلاء المماليك الاتراك ، قيل أن عددهم قارب الألف .
فنشأهم التنشئة العسكرية اللازمة وأعدهم ليتخذ منهم جنودا تذود عنه وتحميه وتثبت دعائم ملكه وتقويه .
وازداد عددهم فانبثوا بين الشعب على ترفع وكبرياء وكثر عبثهم فى البلاد وعمت شكوى الأهالى من شغبهم وسلبهم ونهبهم ، فبنى لهم الملك الصالح قلعة خاصة بهم فى جزيرة الروضة يقيمون فيها ولا يبرحونها ، وسماهم « البحرية » وكان له منهم أمراء دولته وحراسه .

***

« وقلاوون » واحد من هؤلاء المماليك ، ينتسب الى أصل تركى . وقد جلب الى الديار المصرية وهو حديث السن فاشتراه الأمير علاء الدين الأيوبى بألف دينار ، وقد اشتهر من أجل ذلك بالألفى . ثم صار مملوكا للملك الصالح نجم الدين الأيوبى .وظل يتنقل فى خدمة أمراء المماليك واحدا بعد الآخر عاملا فى الجيش ، مظهرا من ضروب الشجاعة

والبسالة ما جعله موضع اعجاب أحد أمراء المماليك فى عهد الملك الظاهر بيبرس فزوجه بابنته . ومنذ ذلك الوقت أصبح الطريق أمامه ممهدا للمجد والسؤدد والرفعة .

وتقلد « قلاوون » منصب كبير قواد الجيش فى عهد السلطان العادل سلامش (الابن الثانى للظاهر بيبرس) عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م . وسمت منزلته حتى صار اسمه يذكر على المنابر قرين اسم هذا السلطان . وسرعان ما انفرد وحده بالحكم ، فبويع سلطانا على البلاد فى نفس العام . ذلك بأنه كان المتبع وقتئذ منح السلطة للأقوى ، فيتولى الحكم أقوى الأمراء وأكثرهم شجاعة وأشدهم بأسا فى الحروب . فكان من المألوف أن ينتهز قائد الجيش فرصة ضعف السلطان فيستولى على العرش لنفسه . ولما كان السلطان العادل سلامش صغير السن ضعيفا فقد اغتصب قلاوون منه الحكم وأعلن سلطانا على البلاد ... وبهذا يصبح قلاوون رأس أسرة قلاوون التى تتابع منها على عرش مصر أربعة عشر ملكا ، حكموها حوالى قرن من الزمان .

واذ كان الحكم وقتئذ واستقراره يقوم على كثرة الأتباع ، فقد اشترى قلاوون عددا كبيرا من المماليك قدر باثنى عشر ألفا ، وهو عدد لم يسبقه الى شرائه أحد من سلاطين مصر .

وكان قلاوون قد تزوج قبل أن يعتلى عرش السلطنة كما تقدم ، ورزق من تلك الزيجة بابنين هما على وخليل .

ولم يكد يمضى على قلاوون فى الحكم سنتان حتى تزوج بأميرة من المغول تدعى « شالون خوندا » كانت تقيم مع والدها فى مصر فى كنف الملك الظاهر بيبرس • وقد عاشت تلك الزوجة مع قلاوون عيشة هانئة مترفة فى قصره الكبير الفخم بالقلعة •

وفى منتصف المحرم عام ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م أنجبت له تلك الزوجة ابنه محمدا •وجاءت بشرى ولادته لأبيه وهو فى الميدان يحارب الصليبيين فى الشام بالقرب من دمشق • فاستبشر الجميع بولادته، وأقيمت الولائم والأفراح وقدمت الهدايا والعطايا والتهانى اللائقة بتلك المناسبة •

وتوفى « على » الابن الأكبر لقلاوون ولما يزل فى مبعة الصبا ، فأوصى قلاوون بولاية العهد لابنه « خليل » • ولم يمض على ذلك سنتان حتى لقى السلطان ربه فى السادس من ذى القعدة عام ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م • ولم يكن ابنه محمد قد تجاوز الخامسة من عمره وفى صباح اليوم التالى نودى بولى العهد خليل سلطانا على البلاد وصار لقبه «السلطان الأشرف صلاح الدين خليل» •

وما كاد السلطان الأشرف يستقر فى الحكم حتى خرج الى الشام بغية طرد الصليبيين من عكا ، وكانت هى آخر معقل بقى فى أيديهم بعد أن أخرجهم أبوه من كل بلاد الشام عام ٦٨٦ هـ/١٢٨٧ م • وقد تم للأشرف الاستيلاء على تلك المدينة عام ٦٩٠ هـ/١٢٩١ م • بعد أن هدم حصونها

فكانت هذه خاتمة الحروب الصليبية التى استمرت قرنين كاملين من الزمان ·

وعاد السلطان الأشرف مظفرا الى مصر ، فاستقبلته القاهرة بمواكب النصر – وخرج الشعب يحييه ويهتف له، وقد برز على رأس جيشه الباسل وخلفه عدد كبير من أسرى الصليبيين مكبلين بالاغلال منكسة أعلامهم ، وقد حمل بعض الجنود رءوس من قتل من هؤلاء الأعداء على أسنة الرماح ·

وما لبث أن تآمر على السلطان الاشرف بعض أمرائه لخلاف وقع بينهم وبينه ، فوثبوا عليه وقتلوه أشنع قتلة عام ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م ولما يتجاوز الثلاثين من عمره ·

وبويع فى نفس اليوم الناصر محمد بن قلاوون بالسلطنة بعد مقتل أخيه ، وهو فى سن التاسعة · وكان صغر سنه سببا فى طمع الأمراء فى الحكم فخلع من السلطنة ولما يتم له فى الحكم أحد عشر شهرا ·

وشاءت ارادة الله ألا ينعم بال هؤلاء الذين اغتصبوا الحكم من هذا الصبى · فان « كتبغا » ما كاد يتولى السلطنة بعده حتى عم البؤس البلاد ، ورزئت بالكثير من المصائب· فقد غاض ماء النيل ، واشتد الغلاء اشتدادا فاحشا ، ونفق معظم الدواب ، كما هلكت القطط والكلاب · وزاد البؤس بالناس حتى أكلوا الميتة وجيف الحيوان · وانتشر الوباء حتى كان يخرج من كل باب من أبواب القاهرة فى كل يوم ما يزيد على سبعمائة من الموتى · وتكدست الجثث

فى الطرقات وأمام الدور · وعم الوباء وتزايدت الضحايا حتى كان الموتى يدفنون بلباسهم دون الغسل والكفن · بل لقد عجز الناس عن ايجاد القبور ، فكانت جثث الموتى من رجال ونساء وأطفال تلقى جميعا فى الحفر ، فاذا امتلأت حفرة ردمت بالتراب · وكان من الطبيعى أن يتشاءم الشعب من حكم هذا السلطان ، فيتمنى زوال عهده وأن يستبدل به غيره ·

واختلف الأمراء فيما بينهم فأعادوا الناصر محمد بن قلاوون مرة ثانية الى عرشه عام ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م · ولم تمض أربع سنوات على اعتلائه العرش حتى خرج عام ٧٠٢ هـ/١٣٠٣ م الى بلاد الشام على رأس جيش من مصر قوامه مائتا ألف جندى لملاقاة المغول الذين كانوا قد استفحل أمرهم بعد أن حالفهم النصر فى جميع حروبهم حتى استولوا على بلاد الشام · والتقى جيش مصر وعلى رأسه السلطان الشاب الناصر قلاوون بجيوش التتار فأفناهم فناء تاما ، وعادت بلاد الشام ثانية تحت رايته ·

ورجع السلطان الناصر الى القاهرة عاصمة ملكه وقد استقر له الأمر ، حتى كان عام ٧٠٨ هـ/١٣٠٩ م ، وفسد مابينه وبين نوابه ، فخلع نفسه من السلطنة بعد أن تولى أمرها نحو تسع سنوات ونصف ·

ولكنهم أعادوه بعد أقل من عام لتولى الحكم عام ٧٠٩ هـ/١٣١٠ م لثالث مرة · وكان قد نضجت سنه ، وبلغ من الخبرة مامكن له من الاستقرار فى ملكه الذى اتسع

شرقا وغربا ، حتى خطب له على منابر بلاد المغرب ، وسعت الملوك الى وده ، وقوى جيشه وأتباعه ، وامتلأت خزائنه بالمال ٠

زوجاته :

تعددت زيجات الناصر قلاوون ، وان كان التاريخ لا يذكر الا أربعا من هؤلاء الزوجات هن :

أردكين ـ وكانت من قبـــل زوجة لأخيه السلطان الأشرف خليل ٠ فلما قتل تزوج بها ورزق منها بولده على الذى توفى فى سن الطفولة ٠ ثم طلقها السلطان بعد ذلك بقليل ٠

طلنباى (الأميرة المغولية) ـ ويروى المقريزى أن هذا الزواج كان زواجا سياسيا ، فقد رغب الناصر فى الزواج من احدى أميرات البيت المغـولى حتى يمحو منهم الشعور بمرارة هزيمتهم أمـــام جيش مصر ٠ ولكن المغول طلبوا لأميرتهم مهرا خياليا قدره ألف ألف دينار ، وألف ألف فرس ، وألف عدة كاملة للحرب ، وأن تحضر جماعة من مصر مع نسائهم لصحبة العروس من بلادها الى مصر ٠ وأمام هذه الشروط العجيبة عدل السلطان عن تلك الزيجة ٠

ثم ماكادت تمضى سنوات ثلاث حتى أرسل المغول من تلقاء أنفسهم الى السلطان أميرة من أحفاد جنكيزخان ، هى الأميرة « طلنباى » وفى حاشيتها بعض أمراء المغول مع نفر

كبير من الحراس ، وفى خدمتها ستون جارية • وقد حملوا معهم الهدايا الفاخرة للنـــاصر • وجرت مراسم الزواج بالقلعة عام ٧٢٠ هـ/١٣٢٠ م على صداق قدره ثلاثون ألف دينار ولكن تلك الزيجة لم تدم طويلا فقد سرحها السلطان بعد ثمانى سنوات من زواجهــما ، فتزوجت بأحد أمراء المماليك •

طغاى ـ وكانوا يطلقون عليها « الخوندة الكبرى » أو « أم آنوك » • وهى أحب زوجات الناصر اليه • وأصلها جارية تركية • كانت بديعة الحسن رائعة الجمال • وقد أنجبت له ابنه آنوك عام ٧٢٠ هـ/١٣٢١ م •

خوند مطلونبك ـ ابنة الأمير تنكز ، الذى كان من أصدق أصدقاء السلطان ، ولكنه غضب عليه وقتله •

زواج أبنائه وبناته :

رزق الناصر محمـــد بن قلاوون بالكثـير من البنين والبنات • أما البنون فقد بلغـــوا أحد عشر ولدا ، اعتلى عرش البلاد منهم ثمانية ، وتوفى منهم فى حياته ثلاثة كان آخرهم آنوك الذى أحزنه فقده فلم يعمر بعده طويلا •

كما رزق بعدد كبــير من البنات زوجهن جميعا من أمراء الدولة • وكان يقيم لكل واحدة منهن عرسا فخما يتناسب مع عظمة السلطنة وقتئذ وثروتها ورخائها •

وقد زفت احدى بناته الى الأمير « على » ، وكان أبوه « أرغون » نائب السلطنة بديار مصر ، فى شعبان عــام ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م • وقد شيد لها فى « مناظر الكبش » (المعروفة باسم قلعة الكبش) عمـــارة جديدة ، جهزها بجهاز فخم ، وصفه المقريزى فى خططه فقال :

« ان منه بشخاناه وداير بيت وستارات طرز ذلك بثمانين ألف مثقال ذهب مصرى ، سوى مافيه من الحرير وأجرة الصناع • وعمل ســـائر الأوانى من ذهب وفضة فبلغت زنة الأوانى المذكورة ماينيف على عشرة آلاف مثقال من الذهب • وتناهى فى هذا الجهاز ، وبالغ فى الانفاق عليه حتى خرج عن الحد فى الكثرة ، فانهـــا كانت أولى بناته • ولما نصب جهازها بالكبش نزل (السلطان) من قلعة الجبل وصعد الى الكبش وعاينه ورتبه بنفسه ، واهتم فى عمل العرس اهتماما ملوكيا • وألزم الأمراء بحضوره فلم يتأخر أحد منهم عن الحضور • ونقط الأمراء الأغانى على مراتبهم من أربعمائة دينار كل أمير الى مائتى دينار سوى الشقق الحرير • واستمر الفرح ثلاثة أيام بلياليها • فذكر الناس حينئذ أنه لم يعمل فيما سلف عرس أعظم منه ، حتى حصـــل لكل جوقة من جوق الأغانى اللاتى كن فيه خمسمائة دينار مصرية ومائة وخمسون شقة حرير • وكان عدد جوق الأغانى التى قسم عليهم ثمانى جوق من أغانى القاهرة ســـوى جوق الأغـــانى السلطانية وأغانى الأمراء وعدتهن عشرون جوقة لم يعرف ما حصل لهذه العشرين

جوقة من كثرة ماحصل • ولما انقضت أيام العرس أنعم السلطان لكل امرأة من نساء الأمراء بتعبية قماش على مقدارها • وخلع على سائر أرباب الوظائف من الأمراء والكتاب وغيرهم ، فكان عرسا عظيما تجاوز المصروف فيه حد الكثرة » •

ويكفى مثلا للمغالاة فيما أنفق فى هذا العرس ماروى من أن مابقى من الشمع بعد ما استعمل منه فيه ألف قنطار • وقد أنعم السلطان على نائبه الأمير « أرغون » والد العريس بمنية بنى خصيب فضمت الى اقطاعه •

وتتابعة زيجات بنات السلطان وأبنائه على نحو هذا الاسراف والاتلاف الذى أشرنا اليه فى زواج أولى بناته • فأقام فى عام ٧٢٧ هـ/١٣٢٦ م حفل زواج ابنته الثانية على الأمير قصون (صاحب المسجد المعروف باسم جامع قيسون بشارع القلعة) فكان حفلا بهيجا استمر سبعة أيام • ولم يقل جهازها عن جهاز أختها فخامة • ويكفى أن نقول انه قد ذبح فى هذا العرس خمسة آلاف رأس من الضأن ومائة رأس من البقر وخمسون فرسا وما لا يحصى من الطيور • وبلغ « نقوط » المغنيات عشرة آلاف دينار • وقدم الأمراء من الشمع ثلثمائة وأحد عشر قنطارا ومالا يمكن حصره من كميات السكر والطعام والشراب •

وعلى هذا النحو تمت زيجات بنات السلطان • أما زواج أبنائه فنسوق منها على سبيل المثال زواج الأمير « آنوك » فقد كان المهر الذى تقاضاه بكتمر والد العروس

عشرة آلاف دينار وخمسين شقة حرير ، ومائة وعاء لحفظ المسك ، ومائة مثقال عنبر ، ومائة شمعة موكبية ، وثلاث خيول مسرجة ملجمة ، وخمسة مماليك فى يد كل مملوك بقجة ٠٠ وعقد القـــران فى القصر السلطانى بالقلعة على صداق قدره اثنا عشر ألف دينار من الذهب ، المقبوض منها عشرة آلاف والمؤجل ألفان ٠

وقد دعـــى الى هذا الحفل جميع أرباب المـلاهى ٠ واستمر الفرح سبعة أيام بلياليها ٠ وفى ليلة العرس جلس السلطان على باب القصر وأشعلت الشموع بأسرها ٠ وجلس العريس تجاه والده ٠ وأقبل الأمراء جميعا يحمل كل أمير بنفسه شمعة وخلفه مماليكه تحمل الشموع ٠ وتقدموا على قدر مراتبهم من السلطان وقبلوا الأرض بين يديه واحدا بعد واحد ٠ واستمر الحفل طوال الليل ٠ وفى آخره نهض السلطان وعبر الى حيث مجتمع النساء ، وكن فى أبهى حللهن وأفخر ثيابهن ٠ فقامت نساء الأمراء جميعا وقبلن الأرض بين يدى السلطان واحدة بعد أخرى ، وقدمن له التحف الفاخرة والنقوط ٠ وما كاد ينتهى ذلك حتى رسم السلطان وأمر بأن يرقصن كلهن عن آخرهن ، فرقصن واحدة بعد واحدة ، والمغنيات يضربن لهن بالدفوف بين نثار من الذهب والفضة وشقق الحرير التى كانت تلقى عليهن ٠ فحصـــل لهـــن من السرور والفرح مايجل عن الوصف ٠ وأخيرا زفت العروس ٠ وفى بكرة الغد جلس السلطان وخلع على الأمراء والموظفين ٠ ورسم لامرأة كل

أمير من الأمراء بتعبية قماش على قــدر منزلة زوجها من الدولة ٠

« وقد استعمل فى هذا العرس من السكر ثمانية عشر ألف قنطار ومن الذبائح مايزيد على عشرين ألف رأس ٠ أما جهاز العروس فقد بلغت قيمته ألف ألف دينار ، وقد حمل على ثمانمائة جمل ومالا يحصى من البغال ٠ وبلغ الذهب فى المصاغ والملابس والزركش ثمانين قنطارا » ٠

وقد اشترك فى احياء حفلات الزواج هذه جميع الفرق الموسيقية الخاصة بالأمراء وســائر أصحاب الاقطاع من أثرياء المماليك وغيرهم ممن يدورون فى فلك السلطان ، فقد كان لكل منهم فرقته الخاصة التى لا تقل عن عشرة من الجــوارى المدربات مع عــدد وافر من نجــوم الغناء والرقص ٠

***

ومن أشــهر المطربات اللاتى جــاء ذكرهن فى هذه الأعراس « زهرة » المغنية وكانت تحتل مكانة كبيرة فى القصر الســلطانى ٠ وكذلك المطربة « اتفاق » التى كان يستأثر بها السلطان الناصر قلاوون ثم نالت بعده العطف والرعاية من الملك الصــالح بن النــاصر ومن أخيه الملك الكامل ٠ وكذلك كان من أشهر مطربات ذلك العصر «خولة العوادة » وكانت ممن نبغن فى الغناء ، ومهرت فى العزف بالعــود ، وكانت من جــوارى الأمير بكتمر وقد دفع فى

شرائها عشرة آلاف دينـــار مما ينهض دليلا على ماكانت تتمتع به تلك الجارية من المزايا والمواهب ٠

واشـــتهر من المغنين فى تلك الأفراح « كثيلة بن مرافعان » وكان من أكبر مطربى ذلك العصر وممن شملهم السلطان الناصر برعايتـــه ٠ وكذلك « سليمان المادح » و « ابراهيم بن الجمال » و « خليل بن الجمال » و « وعلى الشاطر » والمعلم « اســماعيل الدحجانى » و « برقوق التونسى » وأسرة « ابن رحاب » ٠

وكانت الآلات الموسيقية المستعملة فى ذلك العصر هى التى ما زالت تتألف منها فرق الموسيقى العربية المعروفة باسم « التخت » وهى : العود والقانون والكمنجة والرباب والناى والدف ٠

أما آلات فرق الموسيقى الشعبية فكانت : المزمـــر والأرغول والدربكة وأنواعا مختلفة من الدفوف والطبول والصاجات ٠

***

ويعتبر عصر الملك النـــاصر محمد بن قلاوون أزهى عصور الفن فى عهد المماليك ، وهو بلا ريب أعظم سلاطين تلك الدولة ٠ ومجموع سنى حكمه نحو أربع وأربعين سنة وتوفى عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م ٠

واعتلى عرش مصر بعده ثمانية من أولاده وأربعة من أحفاده لم يزد مجموع سنوات حكمهم جميعا على ثلاث وأربعين

سنة ، انتهى بانتهائها حكم دولة المماليك البحرية ...
وكانت طريقة تولية هؤلاء السلاطين من الأبناء والأحفاد وعزلهم تكاد أن تكون واحدة . فالسلطان منهم يأتى به الأمراء طفلا حديث السن فيجلسونه على العرش ، ثم يختلفون فيما بينهم على السلطة والنفوذ ، والسلطان بين هؤلاء وهؤلاء ألعوبة فى أيديهم حتى يستبدلوا غيره به ، اما بالعزل واما بالقتل .

ومما لا ريب فيه أن هذا الاسراف فى تلك الزيجات المتتالية للبنات والبنين كان له أعظم الأثر فى اضعاف هذه الدولة وتعرضها للتقلبات السريعة التى قضت على حكمها وبلغت بها الى نهاية عهدها .

(٣)

زواج
أنجال الخديو اسماعيل

أفراح الأنجال

أفراح الأنجال ـ كما هو واضـــح من التسمية ـ ليست فرحا واحدا ، بل هى مجموعة من أربعة أفراح بدأت فى منتصف شهر يناير سنة ١٨٧٣ واســـتمرت أربعين يوما متوالية ، عشرة أيام لكل منها ٠

وقد أقام هذه الافراح الخـــديو اســماعيل احتفالا بتأهيل ثلاثة من أنجاله هم : « محمد توفيق » و « حسين كامل » و « حسن » وكانوا جميعا وقتذاك من باشــوات الأمراء ، واحدى كريماته ، وهى الأميرة « فاطمة » ٠

وجاءت هذه الأفراح ترجمة صـــادقة لما اتصف به اسماعيل من البذخ المسف والمغالاة فى التبذير والاسراف والاستهانة بأموال الدولة وسوء التصرف فيها ، على نحو من السفه لم يسبق له مثيل ٠

أما الفرح الأول فكان زواج الأمير محمد توفيق باشا (الذى تولى الاريكة الخديوية بعد أبيه اسماعيل) بالاميرة « أمينة هانم الهامى » بنت الهامى باشا ابن عباس باشــا الأول ٠ وهى التى عرفت فيما بعد باسم « أم المحسنين » ٠

والفرح الثانى كان زواج الامير حسين كامل باشــا (الذى نصبه الانجليز فيما بعد ســلطانا على مصر فى بداية الحرب العالمية الاولى) ٠ وقد كان اقترانه بالاميرة

«عين الحياة هانم» بنت الأمير أحمد رفعت باشا ابن ابراهيم باشا الأول ٠

وكان الفرح الثالث زواج الأمير حسن باشا بالأميرة « خديجة هانم » بنت الأمير محمد على الصغير ابن القولة لى محمد باشا الكبير ٠ وقد سبقت هذا الزواج قصة ورد ذكرها فى كثير من المراجع لطرافتها ٠٠ ذلك أن الخديو اسماعيل كان قد أنشأ مدرسة ابتدائية لتعليم البنات ، وكان الالتحاق بها مقصورا على أميرات البيت المالك وبنات الأسر التى تربطها بهذا البيت رابطة النسب ٠ وكانت الاميرة خديجة من بين الاميرات اللاتى التحقن بتلك المدرسة. وقد وعدها الخديو اسماعيل أن يزوجها لنجله الأمير حسن اذا هى أظهرت تفوقا فى التحصيل ٠ ثم حدث أن زار الخديوى تلك المدرسة لتفقد حالة الدراسة بها ٠ وفى أثناء طوافه بالفصول فى صحبة الناظرة وكبار المعلمات ، دخل الفصل الذى كانت به الاميرة خديجة ٠ فلما رآها داعبها، وسألها باسما : «الى أين بلغت من تعليم القرآن ياخديجة؟» فأجابته على الفور : « واذكر فى الكتاب اسماعيل انه كان صادق الوعد » ٠٠ فابتهج اسماعيل لتلك الاجابة التى تنم عن ذكاء الأميرة وسرعة خاطرها ، ولم يسعه الا أن يقول لها فى انشراح ظاهر : « أجل ، أجل ، ما زلت عند وعدى » ٠ ولم يمض على هذا الحادث خمس سنوات حتى كان زواج الاميرة خديجة من الأمير حسن حقيقة واقعة ، برا بهذا الوعد ٠

أمـــا الزواج الرابع فى تلك الافراح فكأن اقتران الأميرة « فاطمة اسماعيل » بالأمير طوسون باشا نجـــل والى مصر محمد سعيد باشا الخديو الأسبق ·

ودامت هذه الافراح الاربعة أربعين يوما متوالية ليلا ونهارا · وكان مقرها فى حى المنيرة ، فى الاماكن المتاخمة حاليا لكلية دار العلوم وما جاورها من منطقة أمام « القصر العالى » حيث كانت تقيم والدة الخديو اسماعيل بجاردن سيتى ·

وبدأت الافراح وفقا للتقاليد المتبعة وقتذاك باقامه حفلات « عقد القران » فى سراى « القصر العالى » · وقد اجتمع فى « الحرملك » الاميرات العرائس تحوطهن بقية الأميرات وبنات كبار الأسر · كما اجتمع فى « سلاملك » السراى أعضاء البيت المالك والنظار (الوزراء) والعلماء وكبار الأعيان الذين دعوا لحضور هذا الحفل ·

ثم جرت مراسم « عقد القران » ، فكان شهود العقد يقصدون الى « الحرملك » ويسألون كل واحدة من العرائس ـ من خلف ستار يحجب ما وراءه ـ هل قبلت الزواج من خطيبها ؟ فتجيب ـ كما جرى العرف ـ بالايجاب بعد تمنع وحياء ·· ولما تم للشهود اجابات العرائس جميعا بالقبول عادوا الى « السلاملك » حيث أجريت صيغة العقد · وقدم « الشربات » فى أقداح من الذهب ووزعت الحلوى والعطايا والهدايا الفاخرة على جميع الحاضرين ·

وانطلقت الأجواق الموسيقية الى أهم ميادين القاهرة وانتشرت تخوت « الآلاتية » من المطربين والمطربات تشنف

الآذان بألحان بديعة ، وأقيمت المسارح المتنقلة فى كل مكان ليمثل فيها جماعات الهواة ، ونصبت الحبال فى الساحات العامة تعرض عليها فرق البهلوان ألعابا مدهشة . وكذلك كانت الألعاب النارية تنطلق فى الهواء كل ليلة فى أشكال بديعة جذابة .

وتجلت نزعة اسماعيل ومن حوله فى الشغف بالترف والاسراف والبذخ فى اعداد « جهاز » العرائس الأربع . فقد بلغ من الفخامة مبلغا يعجز عنه الوصف ، حيث جمع أثمن الحلى والجواهر المرصعة بالماس واليواقيت ومجموعات كبيرة من الأوانى الذهبية والاطقم المصنوعة من الكهرمان الخالص مطوقة بالذهب مرصعة بالأحجار النادة . وقد وضع هذا الجهاز فى ثلاث غرف فسيحة من غرف القصر العالى ، واستمر عرضه فيها عدة أيام تحت حراسة فرق من الأغوات . وقد احتوى كل جهاز على سرير مكسو بطبقة سميكة من الذهب الخالص رصعت أعمدته بالياقوت والزمرد والفيروز (أشبه بالسرير الذى أهداه اسماعيل قبل ذلك بأربعة أعوام الى الامبراطورة أوجينى تذكارا لزيارتها مصر فى الاحتفال بافتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩) .

وبعد أن تم عرض محتويات هذا الجهاز على هذه الصورة ، زف جهاز كل عروس على حدة الى سراى عريسها فى موكب بهيج وفى حراسة شديدة من الجند ، تحف به جماعات من الفرسان فى أزياء ناصعة البياض .

وفى ١٧ من ذى القعدة سنة ١٢٨٩ بدأ نقل الهدايا المقدمة من والدة الخديو اسماعيل باشا وزوجاته الى العرائس من القصر العالى و « شوارهن » . وكان «شوار» الاميرة أمينة هانم أول ما خرج من ذلك النوع فسير به الى قصر القبة فى سلالات مكشوفة فوق عربات مكسوة بالقصب وعلى وسادات من القطيفة المزركشة بالذهب والماس ، يغطيها شاش فاخر يمسك بأطرافه أربعة جنود والسيوف مشهرة فى أيديهم .. وكانت تلك الهدايا عبارة عن مجوهرات ثمينة وقلائد من الماس الساطع المعروف باسم « البرلانتى » ومنطقات من الذهب الخالص ومنسوجات مطرزة باللؤلؤ المنقطع النظير والزمرد الذى فى حجم بيض الدجاج ، وملابس بيضاء مطرز عليها شعار الاميرة باللؤلؤ والأحجار الكريمة ، وآنية متنوعة من الفضة الخالصة بكميات عظيمة .. أما قيمة ذلك فمما يفوق الحصر والعد ،

ولم يختلف « شوار » الأميرات « عين الحياة هانم » و « خديجة هانم » و « فاطمة هانم » ، وكذلك الهدايا والعطايا المقدمة اليهن عن « شوار » أمينة هانم الذى تقدم وصفه .

وقد اجتازت مواكب « الشوار » شوارع القاهرة فى منظر مهيب تتقدمها الموسيقى وتحف بها الزغاريد المختلفة بأصوات الجماهير فى الطرقات وفى الشرفات .

وفى ١٨ من ذى القعدة سنة ١٢٨٩ أقيم بالعباسية سباق كان الأوحد من نوعه اذ كان معظم فرسانه من السود

وعليهن الأردية الحمراء • وقد أمر الخديو اسماعيل أن يعد فيه مقصف فخم فاقت أصناف مأكولاته ومشروباته فى التنوع والتعدد كل ما سبق ظهــوره فى أى من المقاصف الخديوية الى ذلك الحين •

وفى ١٩ من ذى القعدة ، أى فى اليوم التالى لما تقدم، أقيم مرقص فخم فى قصر الجزيرة دعى اليه عدد بين أربعة آلاف وخمسة آلاف من الأجانب وأعيان البلاد • فأضيئت الطرق كلها من سراى عابدين ومن القصر العالى الى سراى الجزيرة بالفوانيس المصنوعة من الورق المزخرف ، كما نشر عدد كبير من الثريات الملونة فى جميع السرادقات المحيطة بذلك القصر الفخم وبين أغصان الأشجار • وامتاز هذا المرقص البهيج بأن تهيأت فيه وليمة فخمة للمدعوين الذين ماجت جموعهم الراقصة بردهات القصر وقاعاته الفسيحة• وقد تقدم أعيان البلاد ووجهاؤها بالهدايا الثمينة النادرة للعرائس الأربع بما تجاوز الافراط فى الاغداق على تلك الولائم الفاخرة التى حفلت بشتى ألوان الطعام الشرقى والغربى ، كما قدم فيها « أرز اسماعيل » المعروف وكان يطهى بخلاصة رءوس الضأن والعجول الصغيرة •

وأقيمت السرادقات الفخمة أمام « القصر العالى » • ودعى كبار المطربين والمطــربات وأشــهر « العــوالم » والراقصات لاحياء ليالى الفرح داخــل القصر وخارجه • وكان هؤلاء يتنــاوبون الغنــاء والرقص فى مختــلف السرادقات • بينما انتشرت فى كل مكان حولها فــرق

الحواة والقراقوز والبهلوانات والطبـل البلدى تعـرض فنونها المختلفة على المدعوين ·

هذا وقد تألفت فرقة موسـيقية من أربعين عازفة لتقوم فى « الحرملك » بتحية المـدعوات والعزف لهن وقد لبست جميع عازفات الفرقة ملابس حريرية موشاة بالقصب والأحجار الكريمة ·

ومن طريف ما حدث فى هذه المهرجانات أن ارتدت جوارى « الحرملك » مـــلابس الرجال ووقفن صـــفوفا كالحجاب يستبقلن المدعوات ويقدمن لهن الحلوى ونفيس الهدايا والعطايا ·

وقد تبارى الشعراء والكتاب على نحو ماكان يجرى به العرف فى هذه المناسبات فى تأليف المنظومات والادوار الغنائية المختلفة · وكان فى الصدارة من هؤلاء اسماعيل صبرى (باشا) ومحمود سامى البارودى (باشا) والشيخ على الليثى والشيخعثمان الجندى والشيخ محمد الدرويش وقد وضعوا طائفة من أبدع الاغانى نذكر منها : مليك الحسن فى دولة جمالك ـ أفراح وصالك تدعى الناس ـ فى مجلس الأنس الهنى ـ جددى يا نفس حظك ـ اليوم صفا داعى الطرب ـ سلطان زمانك شرفنى ـ ملك الجمال لك السعادة ـ بستان جمالك ·· ألخ ·

كما تبارى رجال الموسيقى فى وضـــع المقطوعات والمروشات الخاصة بتلك المناسبة ، وما يزال الكثير منها معروفا حتى اليوم باقترانه بأفراح الأنجال · وكان فى

مقدمة هؤلاء الموسيقيين وقتذاك محمد ذاكر بك (١٨٣٦ ـ ١٩٠٦) فقد أتقن دراسة الموسيقى العسكرية الغربية التى قامت عليها مدارس الجيش وقتذاك ، وتوافرت له ملكة الهضم ثم قوة الانتاج فاستطاع أن يستغل موهبته فى نقل طائفة كبيرة من الأغانى المصرية العربية الى الموسيقى العسكرية عن طريق تدوين الحانها دون ألفاظ . فأحس المستمعون من الجيش ومن الشعب بالموسيقى القومية تملأ جوانحهم وتطرب نفوسهم ، بعد أن ظلت الموسيقات العسكرية فى مصر ردحا من الزمن مقصورة على ما يستورد من ألحان البلاد الأوربية . فلما كانت فرصة أفراح الأنجال قدم ذاكر (بك) من مؤلفاته مقطوعات ومارشات موسيقية انتشرت فى كل أرجاء البلاد الى زمن طويل . ومن أهمها « مارش أفراح الأنجال » و « مارش أفراح القبة » الذى مايزال يعزف حتى الآن ، و « مارش الهوانم » الذى لايقل شهرة عن سابقيه .

كما تسابق الموسيقيون وبخاصة المشتغلون منهم بقصور تلك الأسرة فى وضع الألحان و « السلامات » تحية للأمراء والأميرات فى تلك المناسبة .

وكان من أشهر المطربين الذين اشتركوا فى احياء حفلات هذه الأفراح : الشيخ محمد عبد الرحيم المشهور باسم المسلوب ، والشيخ محمد الشلشمونى ، وعبده الحامولى ، ومحمد عثمان ، وأحمد صابر ، ويوسف المنيلاوى ، وعبد الحى حلمى . ومن المطربات ألمظ والوردانية ونزهة .

ومن أشهر العازفين : محمد العقاد الكبير (قانون) ومحمد ابراهيم الكبير (قانون) وعبد الحميد القضابي (قانون) وأحمد الليثى (عود) ومحمد الجمركشى (عود) ومحمد الشربينى (عود) ، وابراهيم سهلون (كمان) وعلى صالح (ناى) وأمين بزرى (ناى) .

ومن أشهر الأغانى التى غناها عبده الحامولى تلك المناسبة موشح من مقام الحسينى ، وضربه المربع مطلعه :

دولة الاسعاد وافت
وبدا نجم السعود
وبدور الأنس طافت
تثنى أعطاف القدود
يا صدودى اذ تلاقت
منيتى بعد الصدود
بين آس وورود

وأغنية من مقام الراست تلحين الشيخ محمد المسلوب مطلعها :

ملك الجمال لك السعادة
أمرك بشرب الراح مراح
اجعل ليالى الانس عادة
والحظ فى الأفراح مباح

وموشح من مقام البياتى ضرب « سماعى أقصاق » مطلعة :

بلبل الأفـراح غنى
في رياض السـندس
وغصـين البان تثنى
يا حيـاة الأنفـس

وأغنية من مقام الحجازكار ، مطلعها :

مليـك الحسن فى دولة جماله
ملك عقـلى وأفـكارى وروحى
ومن تيهه أسر قلبى جمـاله
وزاد فى محبته وجدى ونوحى

وثمة دور آخر حاز شهرة واسـعة فى تلك الأيام مطلعه :

يا مصر أفراحـك هنـا
دامت بأفراح العـزيز
وصفت بأوقات المـنى
ومثالها فى الكـون عزيز

وكان من أبدع المقطوعات التى غناها محمد عثمان مقطوعة كان هو مؤلفها وملحنها ، وقد أجاد وتفنن فى القائها ، ومطلعها :

بـدر الامـارة لاح
والبدر يصدق وعوده
فى طالـع الأفـراح
شرف منازل سعوده

كما غنى أيضا ·

اليوم صفا داعى الطرب

والراح حلى ويا الوصال

والقلب دا ان كان عجب

أنا أهادى به الجمـــال

وأصير له أسير م الوجد سهير

وأسوح وأنوح واحضر وأروح

وغنى كذلك من مقام الراست :

بستان جمـــالك من حسنه

أبهى وأجمـــل من بســـتان

وان ماس قوامك على غصنه

يعـــلم البلبـــــل ألحــــان

وقد أعد محمد عثمان دورا خصيصا لليلة الزفاف فى هذه الأفراح أطلقوا عليه اسم « أغنية الصبحية » وقد أنشدت فى صبيحة أول يوم من أيام الزواج ، ومطلعها :

ياما أســـعد الصبحية

فى ســــاعة البــدرية

والشـــمس منها تجلى

كواكـــب دريـــة

كما غنى سليمان أبو داود من مقام الحجاز :

فى مجلس الأنس الهـــنى

طاب الصـــبوح وقد وفا

والغصن فى الروض ينثنى

طـــربا لأوقات الصفـــا

ومن أهم الأغاني التى أنشدت بمناسبة هذه الافراح:
أغنية من تلحين الشيخ المسلوب مطلعها :

أفراح وصالك تدعى الناس بالائتناس
والخـير على قـدوم الواردين
الكاس من ايده ينباس راح بالحواس
يامنية العقـل والـدين

وأغنية من مقام الحسينى مطلعها :

جددى يا نفس حظك
منيتى الهـاجر تعطف
وبشـير الأنس وافى
وحبيب القلـب شرف

وما كادت تنقضى هذه الأفراح حتى انقلبت على البلاد أتراحا متوالية متلاحقة · فلقد اضطر اسماعيل بعد أربعة أشهر من انقضائها أن يلتجىء الى الاستدانة فيعقد فى العاشر من يوليو سنة ١٨٧٣ أكبر قرض فى حياته ، ٣٢ مليونا من الجنيهات ·

وليت اسراف اسماعيل وبذخه توقفا عند هذا الحد فى تلك الأفراح واعدادها فحسب ، بل لقد فاق ذلك ما صحبها من المبالغة فى منحه الأراضى لأنجاله وأعضاء أسرته والأقارب والاصهار والمحاسيب حتى الخدم والحشم لتلك المناسبة ، « السعيدة » فى عرفه · فقد « أنعم » بما

يقرب من مليون فدان على هؤلاء وهـؤلاء ، فضرب بذلك اروع الأمثلة على المبالغة في السفه والاسراف بما لم يحدث له من قبل مثيل في عصره ٠

وان نكتفى بان ننقـــل عن وثائق قصر عابدين النبذة القصيرة التالية عن بعض هذه الهبات التى تمت فى تلك الفترة الوجيزة من أفراح الانجال ، باوامر خديويه أو « ارادة سنيه » على حد تعبيرهم عنها فى ذلك العصر :

« فى ربيع الاول سنه ١٢٨٧ أحسننا ـ كما جاء فى الارادة السنيه ـ الى مدام ناروبس بأبعاديه مساحتها ١٥٠ فدانا ، ومهر دارنا خيرى بك آفندى بابعادية مساحتهـا ٢٠٠ فدان ٠ وفى صـفر سنه ١٢٨٦ (وهو عام أفراح الأنجال) وهبنا وأحسنا الى كريمتنا فاطمة هانم جميع أطيان مأمورية ايتاى البارود البالغ مساحتها ٨٥١٥ فدانا بما فيها من المبانى والوابورات والالات والمواشى والمزروعات ووهبنا وأحسنا فى نفس الوقت الى نجلنا حسـين باشا مفتش عموم الأقاليم ٢٢٩٩٩ فدانا والى نجلنا توفيق مثل هذا العدد والى نجلتنـا توحيدة هانم ٢٠٠٣٩ فدانا والى الوالدة ٩٧٥١٢ فدانا » الى آخـــر ما جاء فى قائمـــة الاحسانات والتبرعات ٠

وفى ٤ ذى الحجة من نفس العام صدر « أمر كريم » للداخلية نصه :

« يقتضى أن تقيدوا الى رافع أمرنا هذا خمسين ألف جنيه انجليزى وصرفه بدون سند مقابل ، ويخصم به على

طرف الديوان بحساب قلم المطلوبات · ولزم اصداره لكم بذلك للاجرى اللازم » ·

وفى ٦ منه صدرت « ارادة » لناظر الداخلية :

« اقتضت ارادتى اعطاء حامل امرنا هذا مائة ألف جنيه بدون أخذ ايصال منه ، وخصم هذا المبلغ لجانب الديوان · ولذلك اصدرنا أمرنا هذا وارسلناه اليكم » ·

وفى نفس التاريخ صدرت « ارادة » لصاحب الدولة طوسون باشا هذا نصها :

« نظرا لاتساع دائرتكم اقتضت ارادتى الانعام عليكم بمائة ألف جنيه من نقودنا المدخرة بمصرف منشه لتكون وسيلة لزيادة ايرادكم · فهذا المبلغ اذا اردتم شراء أملاك أو أطيان أو أوراق مالية به فافعلوا كما تريدون · والغرض أن تعنى وتهتم بتنمية ايرادكم وتحسين احوالكم ورفاهيتكم » ·

وبعد خمسة عشر يوما من ذلك التاريخ أى فى ٢١ من ذى الحجة سنة ١٢٨٩ صدرت « ارادة » لصاحب الدولة ابراهيم باشا ابن المرحوم أحمد رفعت باشا هذا نصها ·

« نظرا لاتساع نطاق دائرتكم قد أنعمت عليكم بمائة ألف جنيه من نقودنا المودعة فى مصرف منشه لتكثروا ايرادكم · فان أردتم شراء أملاك أو أطيان أو أوراق مالية بهذا المبلغ فافعلوا ما تشاءون · والغرض الوحيد من ذلك أن تعنى بزيادة ايرادكم وبتحسين مركزكم » ·

وكان من جراء هذه التصرفات السيئة والاسراف المخرب فى مالية الدولة وتبديد ثروة البلاد من عقار وأموال أن عرق اسماعيل فى الدين بما دفع هو والبلاد ثمنه غاليا .

واليكم صفحة من هذه الديون نقدمها من « تقويم النيل وعصر اسماعيل من المجلد الثالث لواضعه سامى باشا » ص ١٥٦٧ .

« كان من أصالة الرأى ان طلب الخديو اسماعيل باشا من الحكومة البريطانيه فى ١١ شوال ١٢٩٢ (أى بعد ثلاث سنوات فقط من تاريخ أفراح الأنجال وما قدمناه فيه من نماذج هباته واحساناته) ارسال بعض كبار موظفى ماليتها لمراقبة الأقلام المالية المصرية . وأخذ يتخابر فى اصدار سندات مالية قيمتها ستة عشر مليونا من الجنيهات . فى مدة أربع سنوات تسرى عليها فوائد بواقع ١٥٪ وتكون أسهم شركة السويس التى بيد الحكومة المصرية ضمانا بسدادها ، على أن تحول تلك السندات فيما بعد الى قرض حالما يفرغ من القروض التى قبل سنة ١٨٦٤ » .

وأخيرا شرع فى بيع ١٧٦٠٠٠ سهم فبيعت لدولة انجلترا بمبلغ أربعة ملايين من الجنيهات وهى تساوى الآن (١٣٥٥ هـ/١٩٣٦ م) مائتى مليون تقريبا . فلما انتشرت أنباء ذلك وذاعت كان لها وقع شديد فى كل جهات المعمورة ماليا وسياسيا » .

الى أن قال :

« وفى ١٦ من ذى القعدة وصل الى الاسكندريه المستر ليف (الذى اختارته انجلترا ليشغل مركز مستشار مالى) ومعه الدولوتيل استوكر وزمرة منتخبه من موظفى وزارة المالية والخارجيه الانجليزيتين . وسافر جميعهم الى الحاضرة فى الحال فاستقبلوا استقبالا شائقا وأنزلوا على الرحب والسعة فى ضيافة ولى النعم (!!) » .

« وتأكد الكل أن المهمة التى أتوا من أجلها ليست مالية فحسب بل مالية وسياسية معا . وأقبل حملة الأسهم يمنون أنفسهم بأعذب الأمانى . ولكنهم ماعتموا أن رأوا أن ـ الحقائق غير الآمال حينما ذابت تصفية أول يناير سنة ١٨٧٦ فان النقود أخذت تتوارى وتقل وارتفع الخصم من ٣ الى ٤٪ ونزل القرض ثلاثة بنود وبدأت السوق تشعر بأن مؤثرات مختلفة تتضارب حول العرش المصرى . وتمنى دلسبس شراء حصص التأسيس المعطاة للحكومة المصرية وعددها خمس عشرة فى المائة من مجموع الحصص كلها » .

وهكذا فقد اسماعيل عرشه نتيجة لاسرافه المخرب، وغرق وأغرق معه البلاد التى كان يبدد أموالها ويتصرف بنزقه فى جميع مرافقها وكأنما كانت كلها بما حوته ملكا خاصا له ولأسرته .

وأحسب أن فلسفة هذه المعانى كلها هى التى كانت تجول فى ذهن الخديو توفيق عندما تقدم اليه الجيش فى

٩ من سبتمبر سنة ١٨٨١ بقيادة عرابى يطالبه بانشاء مجلس نيابى وزيادة عدد الجيش الى ١٨ الفا الى غير ذلك من الطلبات . فقال له الخديو :

« كل هذه الطلبات لا حق لكم فيهـا وأنا ورثت هذه البلاد عن آبائى وأجدادى ، وأعمل فيهـا زى ما أنا عاوز ، وما أنتم الا عبيد احساناتنا » .

هذه كلها نماذج وصور من الأعراس التى تضمنتها فصول هذا الكتاب ، وهى فى الواقع أمثله لتقاليد كثير من الملوك والأمراء بددوا أموالا طائلة فى عصور سابقة كان ختامها على ما يبدو أفراح هؤلاء الأنجال الأربعة . ثم لم تعد المجتمعات بعد ذلك تسـمح بمثل هذا الاسراف ، وأصبحت البساطة والقصد من ألزم ما تتحلى به الشعوب فى أفراحها وحفلاتها نتيجة لتقدم الوعى وزيادة الاهتمام بما هو أهم وأجدى فى رقى الفرد والمجتمع . ولم يبق من هذه الأفراح ـ وما سـبق أو لحق من أمثالها ـ سوى العبرة التى سجلناها للتاريخ لترى الأجيال القادمة أمثلة لن يشهدوها فى حياتهم ولكنهم يسمعون بها ويستمتعون بقصتها ويروحون عن أنفسـهم بالعجائب والغرائب من روايتها .

الفهرس

تنويه: هذا الفهرس ليس من أصل الكتاب ؛ وإنما أعددته تسهيلاً للوصول الى المواضيع .

م. سرمد حاتم شكر السامرائي

ملتزم التوزيع
فى الجمهورية العربية المتحدة وجميع انحاء العالم
الشركة القومية للتوزيع

مكتبات الشركة بالجمهورية العربية المتحدة

الفرع	العنوان	تليفون	المدينة
١ ــ فرع شريف	٣٦ شارع شريف	تليفون ١٠٠١٢	القاهرة
٢ ــ فرع ٢٦ يوليو	١٩ شارع ٢٦ يوليو	٥٥٠٣٢	القاهرة
٣ ــ فرع ميدان عرابى	٥ ميدان عرابى	٤٦٣٨٣	القاهرة
٤ ــ فرع المدبان	١٣ شارع محمد عز العرب	٢١١٨٧	القاهرة
٥ ــ فرع الجمهورية	٢٢ شارع الجمهورية	٩١٠٧٤٢	القاهرة
٦ ــ فرع عابدين	١٤ شارع الجمهورية	٩١٤٢٢٣	القاهرة
٧ ــ فرع الحسين	ميدان الحسين		القاهرة
٨ ــ فرع الجيزة	١ ميدان الجيزة	٨٩٨٣١١	القاهرة
٩ ــ فرع أسوان	السوق السياحى	٢٩٣٠	أسوان
١٠ ــ فرع الاسكندرية	٤٩ ش سعد زغلول	٢٥٩٢٥	الاسكندرية
١١ ــ فرع طنطا	ميدان الساعة	٢٥٩٤	طنطا
١٢ ــ فرع المنصورة	ميدان المحطة		المنصورة
١٣ ــ فرع أسيوط	شارع الجمهورية		أسيوط

مراكز ووكلاء الشركة خارج الجمهورية العربية المتحدة

المركز / الوكيل	العنوان	المدينة
١ ــ مركز توزيع الجزائر	شارع بن مهيدى العربى رقم ١١ مكرر	الجزائر
٢ ــ مركز توزيع لبنان	شارع دمشق	بيروت
٣ ــ مركز توزيع العراق	ميدان التحرير	بغداد
٤ ــ عبد الرحمن الكيالى	شارع ٢٩ آيار ــ دمشق	سوريا
٥ ــ الشركة العربية للتوزيع	ص . ب رقم ١٢٣٨ بيروت	لبنان
٦ ــ قاسم الرجب	مكتبة المثنى ــ بغداد	العراق
٧ ــ رجا العيسى	وكالة التوزيع ــ عمان	الأردن
٨ ــ عبد العزيز العيسى	سار للتوزيع ص.ب ١٥٧١	الكويت
٩ ــ وكالة المطبوعات	الكويت	الكويت
١٠ ــ مكتبة الوحدة العربية	شارع عمرو بن العاص ــ ليبيا	بنغازى
١١ ــ محمد بشير الفرجانى	٥٣ شارع عمرو بن العاص	طرابلس
١٢ ــ الشركة الوطنية للتوزيع		تونس
١٣ ــ وكالة الأهرام	شارع الرشيد	عدن
١٤ ــ المكتبة الوطنية	المنامة ــ الخليج العربى	البحرين
١٥ ــ مكتبة العروبة	ص.ب ٤٢ و ٦٤	الدوحة
١٦ ــ عبد الله حسين الرستمانى	المكتبة الأهلية ص.ب ٢٦١	دبى/عمان
١٧ ــ المكتبة الحديثة	ص . ب ٢٧	مسقط
١٨ ــ أحمد سعيد حماد	المكتبة الوطنية ص.ب ٢٥	المكلا
١٩ ــ مكتبة دار القلم	شارع عبد المنعم ميدان التحرير	صنعاء
٢٠ ــ على ابراهيم بشير	ص . ب ٨٢	اسمرة
٢١ ــ عبد الله قاسم الحرازى	ص . ب ١٧١٤	اديس ابابا
٢٢ ــ مكتبة بشير	ص . ب ٩٣٦	مقديشيو
٢٣ ــ عبد الله عامر بجنيد	ص . ب ٨٤٥	ممباسا
٢٤ ــ مكتب توزيع المطبوعات العربية	لندن	لندن
٢٥ ــ المكتب التجارى الشرقى	٤٠ ش كمعار ص . ب ٢٢٠٥	سنغافورة
٢٦ ــ مكتبة مصر		الخرطوم
٢٧ ــ مكتبة الفجر		وادى مدنى
٢٨ ــ زكى جرجس بطليوس	ص.ب رقم ١٥٥	الخرطوم
٢٩ ــ ابراهيم عبد القيوم	مكتبة القيوم ص.ب ١٨٠	بور سودان
٣٠ ــ عوض الله محمود دبورة	مكتبة دبورة ص.ب ٢٤	عطبرة
٣١ ــ عيسى عبد الله	المكتبة الوطنية ص ٢١٥	وادى مدنى
٣٢ ــ مصطفى صالح	ص.ب ٤٤	كوستى

أسعار البيع للجمهور فى الدول العربية

سوريا ٣٠ قرش سورى ــ لبنان ٣٠ قرش لبنانى ــ الأردن ٣٠ فلس ــ العراق ٣٠ فلس ــ الكويت ٤٠ فلس ــ السودان ٣٠ مليم ــ ليبيا ٣٠ مليم ــ قطر ٥٠ درهم ــ البحرين ٥٠ فلس ــ عدن ٧٥ سنت ــ اديس ابابا ٣٠ سنت ــ اسمرة ٣٠ سنت ــ الجزائر ٥٠ سنتيم .

المكتبة الثقافية

أول مجموعة من نوعها
تحقق اشتراكية الثقافة
تيسر لكل قارئ أن يقيم
في بيته مكتبة جامعة
تحوي جميع ألوان المعرفة
بأقلام أساتذة ومتخصصين

يشرف على السلسلة

الدكتور شكري محمد عياد

●

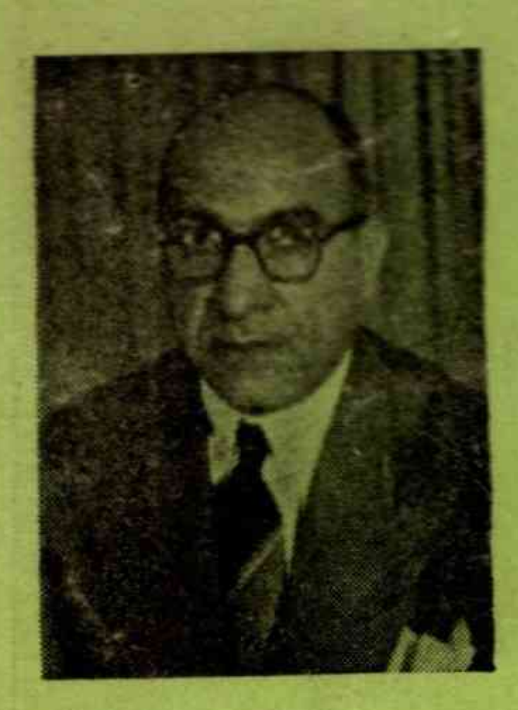
العدد القادم

الحكاية الشعبية

بقلم

الدكتور عبد الحميد يونس

مطابع دار الكاتب العربي
فرع الصحافة



د. محمود أحمد الحفني

- حصل على دكتوراه في الموسيقى من جامعة برلين سنة ١٩٣٠
- شغل بعض المناصب الموسيقية الهامة منها : عميد المعهد العالي للموسيقى المسرحية ومستشار الاذاعة المصرية ومدير المعهد العالي للباليه . ويعمل الآن خبيرا لشئون الموسيقى بجامعة الدول العربية .
- مثل مصر وجامعة الدول العربية في كثير من المؤتمرات الدولية للموسيقى .
- أصدر ثلاث مجلات موسيقية متوالية « الموسيقى ، والمجلة الموسيقية ، والموسيقى والمسرح» وصدر له حتى الآن مايزيد على ٣٥ مصنفا في مختلف العلوم والفنون الموسيقية .